مكتبة الانترنت

الاكاذيب الصهيونية

من بداية الاستيطان حتى انتفاضة الاقصى

دكتور عبد الوهاب المسيري

2001

الفهرس

مقدمة
الفصل الاول: يهود ام جماعات يهودية
الفصل الثاني : **الخصوصية اليهودية**
الفصل الثالث : **إشكالية الإحصاءات**
الفصل الرابع : **الهجرة والاستيطان**
الفصل الخامس : **علاقة الصهيونية بالمسيحية**
الفصل السادس : **معاداة اليهود: تفكيك وتركيب ثلاث حالات**
الفصل السابع : **أزمة الصهيونية**
الفصل الثامن : **انتصار الإنسان في جنوب لبنان**
الفصل الثامن : **انتفاضة الأقصى وجذور العنف الصهيوني**

ان الذين عنوا بانشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا الا في شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون الا ان يقرأ ابناء الشعوب العربية، وان ينتفعوا ، وان تدعوهم هــذه القــراءة الــى الاستزادة من الثقافة، والطموح الى حياة عقلية ارقى واخصب من الحياة العقلية التي نحياها.

طه حسين

مقدمة

ثمة مصطلحات ومفاهيم كثيرة اخترقت خطابنا السياسي مثل "الشعب اليهود" و" الخصوصية اليهودية" و" المنفى" و" ارتباط اليهود الأزلى بأرض الميعاد"، وقد التبست بعض الظواهر في أذهاننا بحيث زالت الحدود بين الصهيونية واليهودية والمسيحية حتى أصبحنا نتحدث عن الصهيونية المسيحية. وقد وصل الاختراق درجة أن الكثيرين لا يستطيع تصديق أن الصهيونية في حالة أزمة، وأن الانسحاب الصهيوني من جنوب لبنان ثم انتفاضة الأقصى قد تركا جرحا غائراً في الوجدان الصهيوني / الاسرائيلي.

والدراسات التي يضمها هذا الكتاب هي محاولة لتفكيك واعادة تركيب بعض هذه المفاهيم والمصطلحات، حتى تتعمق رؤيتنا للعدو الصهيوني، وحتى ندرك مواطن قوته وضعفه، ومن ثم يمكننا تحسين مقدرتنا على التنبؤ بسلوكه والتصدى له. والفصلان الأولى والثاني يتناولان مفهومين محوريين صهيونيين: "الشعب اليهودي" و "الخصوصية اليهودية" ، ويبينان أنه لا أساس لهما في الواقع . ويتناول الفصلان الثالث والرابع جانبا مهماً من الظواهر اليهودية والصهيونية لم يتم التصدي له بما فيه الكفاية، وهو العبد الديموجرافي وكيف يوظف الصهاينة الأرقام لترويج مفاهيمهم، أما الفصلان الخامس والسادس فيتناولان المفهوم الذي شاع مؤخراً "الصهيونية المسيحية" ومعاداة اليهود التي يقال لها معاداة السامية. أما الفصول الثلاثة الأخيرة "الثامن والتاسع والعاشر" فتتناول بعض معالم الأزمة الصهيونية وأسباب تفاقمها.

وبعد ــ تشكل هذه الدراسات اجتهاداً أوليا يحتاج الى مزيد من التطوير والتمحيص. ونحن نؤمن أن الاجتهاد لا بد وأن يسبق الجهاد وأن الواقع يتغير من حولنا بسرعة، ولذا لا بد أن يواكبه اجتهادات مستمرة من جانبنا. فالاجتهاد عملية مفتوحة لا نهاية لها، ومن اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد ولم يصب فله اجر واحدز والمهم هو أن نستمر في الاجتهاد والجهاد.

والله أعلم دمنهور القاهرة ــ يناير 2001

دكتور عبد الوهاب المسيري

الفصل الأول

يهود أم جماعات يهودية

يتصور كثير من الدارسين أن كلمة (يهودى) دال له مدلول واضح ومحدد يشبه في وضوحه وتحـــدده دالاً مثل "ألماني". فالألماني هو فرد ينتمي إلى الفرع النوردى من الجنس الأبيض من الناحية العرقية، وإلى الحضارة الغربية من الناحية الحضارية العامة، وإلى الثقافة الجرمانية من الناحية الإثنية. وهـــو يتحدث الألمانية، وينتمي إلى الشعب الألماني. والعناصر المشتركة بين أفـــراد هـــذا الشـــعب كثيـــرة ومهمة، ولذا فهي ذات مقدرة تفسيرية وتصنيفية تفوق بمراحل العناصر غير المشتركة بيـــنهم (تعـــدد اللهجات ــ تنوع الألوان المحلية ــ انقسامهم إلى طبقات).

ولذا يتحدث كثير من الدارسين عن اليهود وكأنهم كتلة واحدة متماسكة ومتجانسة فعلاً، ويتم التعبيـــر عن هذا بكلمات مثل كلمة "جوري **Jewry**" الإنجليزية التي تعني "اليهود باعتبارهم كـــلاً متماســـكاً"، ويصبح افتراض الوحدة والتماسك والتجانس أكثر وضوحاً حينما يتحدث الباحث عن اليهود باعتبارهم "الشعب اليهودي" و "الأمة اليهودية" وهو ما يعني أن اليهود ينتمون إلى تشكيل حضاري واحـــد، وأن لهم تاريخاً واحداً، ومصيراً واحداً، ومستقبلاً واحداً، وربما عرقاً واحداً وانتماءً، ثقافيـــاً واحـــداً، وأن مصالحهم واحدة وتطلعاتهم واحدة، وأن العناصر المشتركة بين يهود العالم أكثر أهمية من العناصـــر غير المشتركة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا كان ثمة عناصر مشتركة بين يهود العالم، فما هي؟ وهل هذه العناصر المشتركة أكثر تفسيرية وأهمية من العناصر غير المشتركة؟

التاريخ اليهودي

لنأخذ، على سبيل المثال، فكرة "التاريخ اليهودي" الذي هو مصطلح يفترض وجود تاريخ يهودي مستقل عن تواريخ جميع الشعوب والأمم، وهو مفهوم تتفرع عنه وتستند إليه مفاهيم الاستقلال اليهودي الأخرى. ومفهوم التاريخ اليهودي يفترض أن لهذا التاريخ مراحله التاريخية وفتراته المستقلة ومعدل تطوره الخاص، بل أيضاً وقوانينه الخاصة، وهو تاريخ يضم اليهود وحدهم، يتفاعلون داخله مع عدة عناصر مقصورة عليهم، من أهمها دينهم وبعض الأشكال الاجتماعية الفريدة. واستقلالية أي بناء تاريخي تعني استقلالية بناه الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك استقلالية البني الحضارية والرمزية المرتبطة به، وتجانسها النسبي في كل مرحلة من مراحله. كما أن هذا البناء يضم جماعة من الناس لا وجود لها خارجه، ولا يمكن فهم سلوكها إلا في إطار تفاعلها معه. ولكن من الثابت تاريخيا أن الجماعات اليهودية المنتشرة في العالم كانت تتسم بعدم التجانس وعدم الترابط وبأن أعضاءها كانوا يوجدون في مجتمعات مختلفة تسودها أنماط إنتاجية وأبنية حضارية اختلفت باختلاف الزمان والمكان. فيهود اليمن، في القرن التاسع عشر، كانوا يعيشون في مجتمع صحراوي قبلي عربي. أما يهود هولندا فكانوا في الفترة ذاتها يعيشون في مجتمع حضري رأسمالي غربي. ولكل هذا نجد أن سلوك اليهودي اليمني ورؤيته للكون تحكمها إلى حد كبير عناصر البناء التاريخي العربي الذي يعيش فيه، تماماً كما تحكم سلوك يهود هولندا ورؤيتهم مكونات البناء التاريخي الغربي الهولندي.

والآن، إذا افترضنا جدلاً وجود تاريخ يهودي، فما هي أحداث هذا التاريخ؟ هل الثورة الصناعية، على سبيل المثال، ضمن أحداث هذا التاريخ، أم أنها حدث ينتمي إلى التاريخ الغربي؟ في الواقع سنكتشف أن الثورة الصناعية حدث ضخم في التاريخ الغربي، ترك أعمق الأثر في يهود العالم الغربي، وأحدث انقلاباً في طرق حياتهم ورؤيتهم للكون في القرن التاسع عشر، أي بعد حدوث الانقلاب بفترة وجيزة، لكن هذا الانقلاب لم يحدث لهم باعتبارهم يهودا وإنما بأعتبارهم أقلية توجد داخل التشكيل الحضاري الغربي، إذ إننا سنجد أن هذا الانقلاب في طرق الحياة والرؤية للعالم قد حدث أيضاً لأعضاء الأغلبية ولأعضاء الأقليات الأخرى الموجودة داخل المجتمعات الغربية. وفي الوقت نفسه، لم يتأثر يهود العالم العربي بالثورة الصناعية بالدرجة نفسها، ذلك لأن التشكيل الحضاري العربي كان بمنأى عن هذه الثورة الصناعية في بداية الأمر، لكن بعد نحو قرن من الزمان، بدأ هذا التشكيل يتأثر بالثورة الصناعية، وبالتال بدأ أثرها يمتد إلى معظم المجتمعات العربية بأغلبياتها وأقلياتها، أما يهود إثيوبيا فلم يتاثروا إلا بشكل سطحي، لأن المناطق التي يعيشون فيها ظلت بمنأى عن هذه التحولات الكبرى، وبقيت ذات طابع قبلي حتى الوقت الحاضر. لذا يمكن القول بأن معدل تأثر اليهود بالثورة الصناعية مسألة مرتبطة بكونهم أعضاء في مجتمع ما. فإذا تأثر هذا المجتمع بالثورة الصناعية فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتأثرون بها بالمقدار ذاته، وإذا فالإطار المرجعي للدراسة لا يمكن أن يكون التاريخ اليهودي. ولو جعل الباحث هذا التاريخ مرجعيته لعجز عن تفسير كثير من عناصر عدم التجانس والتفاوت في هذا التاريخ، ولاضطر إلى لي عنق الحقائق ليفسر سبب تأثر يهود لندن بالثورة الصناعية فور حدوثها ولم يتأثر بها بعض يهود إثيوبياً حتى الآن!

هوية يهودية وموروث يهودي

إذا كان من الصعب قبول مقولة "التاريخ اليهودي" فإنه يصبح من الصعب بالتالي الحديث عن "الهوية اليهودية" أو عن "الشخصية اليهودية"، إذ أن من الواضح أن أعضاء الجماعات اليهودية هم جـزء لا يتجزأ من التشكيلات الحضارية التي يعيشون في كنفها، بتفاعلون معها تأثيراً وتأثراً، شأنهم في هـذا شأن أعضاء الأغلبيات والأقليات.

لنأخذ على سبيل المثال الموروث الثقافي لأعضاء الجماعات اليهودية، إننا سنلاحظ مـثلاً أن اللغـات التي يتحدثون بها تختلف باختلاف المجتمع الذي ينتمون إليه، فهم يتحدثون الإنجليزية في البلاد التـي تتحدث بها، والفرنسية في فرنسا، والجورجية في جورجيا.

وتشير المراجع الصهيونية إلى اللادينو (وهي رطانة إسبانية كان السفارديم يتحدثون بها)، واليديشـية (وهي ألمانية العصور الوسطي بعد أن دخل عليها بعض المفردات العبرية والسلافية، وتكتب بحروف عبرية، كان يهود شرق أوربا يتحدثون بها). نقول إن المراجع الصهيونية تشير إلى هاتين الرطـانتين بحسبانهما تعبيراً عن الاستقلالية اليهودية. لكن من المعروف أن ظـاهرة اللهجـة المسـتقلة ليسـت مقصورة على اليهود فكثير من أعضاء الأقليات ممن يضطلعون بوظيفة معينة (كالتجارة والربا) يبقون على لغتهم وسيلة للحديث، ولعل من أصدق الأمثلة على ذلك الأرمن في الدولة العثمانية والصـينيون في جنوب شرق آسيا، الذين يضطلعون بوظائف مالية محددة، فهـؤلاء يتحـدثون لغـتهم الأصـلية ويحتفظون بتماسكهم، لكن بزوال وظيفتهم يرحلون عن الوطن أو يندمجون فيه، وهذا ما حدث للادينو واليديشية، فالأولى انقرضت تماماً، أما الثانية فقد اصبحت لغة المسنين فـي بعـض بقايـا الجيـوب اليهودية في شرق أوربا، وهي في طريقها إلى الاختفاء.

ويقوم المؤلفون اليهود بوضع مؤلفاتهم بلغة أوطانهم، وحتى المؤلفات الدينية التي كانت تكتب بالأرامية أو العبرية، فإنها تكتب الآن بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، أو بأية لغة يجيـدها المؤلـف مـن أعضاء الجماعات اليهودية، ولم يعد يكتب بالعبرية سوى المؤلفين الإسرائيليين، وإذا تركنا اللغة (هذا الوعاء البالغ الأهمية) نظرنا إلى الأدب والفنون التشكيلية، فسنجد أن التقاليد الأدبية والفنية التي يبـدع المؤلفون والفنانون اليهود من خلالها هي تقاليد بلادهم. ولا يمكن فهم إبداعات هؤلاء الحضـارية إلا بالرجوع إلى موروثات بلادهم الحضارية، ولو عاد الباحث إلى مفهوم الهوية اليهودية العامة والعالمية لضل سواء السبيل تماماً. وقل الشيء نفسه عن الأزياء والأطعمة والطرز المعمارية.

وحتى لو كان ثمة خاصية ما تفصل اليهود عن محيطهم الحضاري فإن هذه الخاصية (مثل تكلم يهود شرق أوربا باليديشية بعض الوقت) تظل مقصورة على أقلية يهودية بعينهـا، ومرتبطـة بملابسـات تاريخية وأوضاع اجتماعية وفترة زمنية محددة وبالتالي، فهي ليست خاصية يهودية عامة أو عالمية، وإنما هي خاصية تتسم جماعة يهودية ما بها، توجد داخل زمان ومكان محددين، وهي في هذه الحالة الجماعة اليهودية في شرق أوربا من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن العشرين. وهي أيضـاً خاصية لا تربط بين هذه الجماعة اليهودية وغيرها من الجماعات، بل بالعكس، إنهـا تزيـدها فرقـة وتنوعاً، فاليهود خارج هذا الزمان وهذا المكان لا يتحدثون اليديشية، وبعضهم يرفضها، وقـد نشـب صراع بين دعاة اليديشية من أنصار قومية الدياسبورا ودعاة العبرية من الصهاينة، كما هاجم مثقفـو حركة الاستنارة في ألمانيا اليديشية باعتبارها ألمانية مشوهة ولغة الغش التجاري والتخلف الحضاري!

وقد اختفت اليديشية، بينما استمر يهود شرق أوربا في الوجود، يتحدثون لغات أوطانهم: الروسية، والبولندية، والأوكرانية، والألماني.

سفارديم واشكناز ويهود العالم الإسلامي

يمكن تصنيف الجماعات اليهودية المتنوعة على عدة أسس، كلها ذات مقدرة تفسيرية وتصنيفية جزئية. وهذا يعود إلى إشكالين أساسيين كامنين في الشرع والموروث الديني اليهوديين: فاليهودي يعرف بأنه من ولد لأم يهودية أو تهود بحسب الشريعة. وهو ما يعني أن هناك أساساً عقائدياً (التهود والإيمان باليهودية) وأساسا عرقياً (الأم يهودية)، أي أن الإنتماء إلى اليهودية يمكن أن يتم على أساس أي من المنطلقين، كما أن اليهودي الملحد يظل يهوديا على الرغم من إلحاده (وهذا أمر ينفرد الشرع اليهودي به دون الإسلام أو المسيحية).

ويمكن تصنيف أعضاء الجماعات اليهودية، على أساس عرقي أو إثنى، إلى مجموعات كبرى ثلاث:

1ـ السفارديم:

هم اليهود الذين كانوا يتحدثون اللادينو، وهم نسل أولئك اليهود الذين عاشوا في شبة جزيرة أيبيريا أصلاً، وحينما طرد أعضاء الجماعة اليهودية منها اتجهوا إلى الدولة العثمانية واليونان وشمال إفريقيا، وكانت قطاعات من يهود المارانو المتخفين (الذين أظهروا الكاثوليكية وأبطنوا اليهودية هرباً من محاكم التفتيش) تلحق بهم وتشهر يهوديتها فتصبح من السفارديم. وكان بين السفارد نخبة تمتلك مهارات إدارية، كما كانت تمتلك رأس مال كبير يؤهلها للاضطلاع بدور التجارة الدولية. وفعلاً كون السفارد شبكة تجارية دولية فقاموا، بالتالي، بدور أساسي في تطوير الرأسمالية الغربية. ولهم طريقتهم الخاصة في الصلاة والطقوس الدينية، ولذا يمكن الإشارة إلى النهج السفاردي في العبادة، كما أن عبريتهم تختلف عن عبرية الأشكناز، وكان السفارد أكثر اندماجاً في محيطهم الحضاري وأكثر استيعاباً للحضارة العربية ثم الحضارة الغربية. وظهر في صفوفهم الفيلسوف إسبينوزا ورئيس الوزراء دزرائيلي، وثمة عداء متأصل بين السفارد والأشكناز، فالسفارد كانوا أرستقراطية اليهود، وكان استقرار الأشكناز في أماكن تجمعهم يسبب لهم الحرج، وكانوا لا يتعبدون معهم ولا يتزوجون منهم، وكانوا يحاولون الاحتفاظ بمسافة بينهم، وقد انقلب الوضع رأساً على عقب بعد أن تحولوا إلى أقلية وحقق الأشكناز بروزاً في الحضارة الغربية، وبعد إعلان دولة إسرائيل.

2ـ يهود الشرق والعالم الإسلامي:

يشار إلى يهود الشرق والعالم الإسلامي بأنهم "سفارد" أيضاً، وهذه تسمية مغلوطة، ويعود هذا إلى أن كثيراً من يهود العالم الإسلامي يتبع النهج السفاردى في العبادة، لكن هذا لا يجعلهم من السفارد، فتجربتهم الدينية والثقافية والتاريخية مختلفة تماما. وينقسم يهود العالم الإسلامي إلى عدة أقسام، أهمها يهود البلاد العربية أو اليهود المستعربة الذين استوعبوا التراث العربي وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منه. غير أن هناك جماعات صغيرة أخرى، مثل اليهود الأكراد وبقايا السامريين ويهود جبال الأطلس من البربر ويهود إيران، وغيرهم. ويتميز كل فريق بأنه مستوعب في إطاره الحضاري للمجتمع الذي يعيش في كنفه فيتحدث لغة، بل أيضاً لهجة المجتمع الذي يعيش فيه، ويتعامل مع العالم من خلال أنساق هذا المجتمع الثقافية والرمزية. وهناك أحياناً سمات دينية فريدة لأعضاء هذه الجماعات

الصغيرة، تعزلها عن التيار الرئيسي لليهودية، إذ إن المكون الإثنى كثيراً ما يؤثر في المكون الـــديني ويغلب عليه.

3ــ الأشكناز:

هم أساساً يهود شرق أوربا (روسيا/ بولندا) الذين يتحدثون اليديشية. ويعود أصلهم إلى ألمانيا (أشكناز بالعبرية) ومع أن أغلبية الأشكناز كانت تتحدث اليديشية، فقد كان الأشكناز يغادرون بولندا إلى بـــلاد مثل هولندا وإنجلترا ثم الولايات المتحدة، كانت المجتمعات المضيفة (بما في ذلك أعضـــاء الجماعـــة اليهودية فيها) تعتبرهم متخلفين، فقد كانوا يعملون كصغار مرابين وباعة متجولين، وكانوا يحضـــرون معهم بعض الأمراض الاجتماعية، كالغش التجاري والدعارة. وكانوا يظهرون عزوفاً عن الإنـــدماج، ولا سيما أن أزياءهم وطريقة قص شعرهم مختلفة، فكانت تميزهم وتعزلهم عن محيطهم الحضـــاري الجديد. وصيغ الدين اليهودي التي يعرفونها تختلف عن الصيغ التي يعرفها السفارد.

ولذا، يمكن الحديث أيضاً عن النهج الأشكنازي في العبادة، والمسألة اليهودية كانت أساساً مسألة يهود شرق أوربا من الاشكناز، وقد ظهرت جميع الحركات الفكرية اليهودية الحديثة في صـــفوفهم أيضـــاً: حركة الاستنارة اليهودية، اليهودية الإصلاحية، اليهودية المحافظة، قومية الدياسبورا، البوند، وأخيـــراً الصهيونية التي بدأت كحركة اشكنازية تهدف إلى تأسيس دولة اشكنازية، لكن يهود الشـــرق والعـــالم الإسلامي وبقايا السفارد اكتسحوها.

إصلاحيون ومحافظون وأرثوذكس وطوائف وعبادات أخرى

يمكن تقسم يهود العالم من الناحية الدينية إلى قسمين أساسيين:

1ــ يهود إثنيون وهؤلاء فقدوا كل علاقتهم بالعقيدة اليهودية والمـــوروث الـــديني، وهـــم يـــرون أن يهوديتهم تكمن في إثنيتهم، أي في أسلوب حياتهم وموروثهم الثقافي، ويمكن القول بأن أكثر من نصف يهود أمريكا يهود بهذا المعني، أما في الاتحاد السوفيتي (سابقا)، فإن عددهم يزيد عن ذلـــك كثيـــراً، ويشار إلى هذا الفريق بأنه اليهود الملحدون أو العلمانيون.

2ــ يهود يؤمنون بصيغة ما من صيغ العقيدة اليهودية، وهؤلاء ينقسمون إلى عدة أقسام:

(أ) اليهودية الأرثوذكسية: هي وارثة اليهودية الحاخامية أو المعيارية أو التلمودية. وهـــي الصـــيغة اليهودية التي سادت بين الجماعات اليهودية الأساسية في الغرب منذ العصور الوسطي حتـــى نهايـــة القرن التاسع عشر. ويؤمن اليهود الأرثوذكس بأن التوراة مرسلة من الإله، وبأن كل ماجاء فيها ملزم. ولذا، فهم يرون ضرورة أن يلتزم اليهودي بتنفيذ الوصايا والنواهي (المتسفوت)، وضـــرورة إقامـــة الشعائر كافة، بما في ذلك شعيرة السبت والطعام الشرعي.

(ب) اليهودية الإصلاحية: هي أول المذاهب اليهودية التي تحدت اليهودية الحاخامية وظهـــرت فـــي ألمانيا (مهد الإصلاح الديني المسيحي)، وتعد ترجمة لفكر عصر الاستنارة. هي تحاول أن تعبر عـــن العصر الحديث، فتحكم العقل في كل شيء، وتحاول أن تفصل المكون الديني عن المكون العرقـــي أو القومي في العقيدة اليهودية بحيث يصبح المكون وحده ملزماً ويسقط أي تفسير قومي لأفكـــار مثـــل "العودة" و"النفي". بحيث تصبح كلها أفكاراً تعبر عن تطلع ديني يتحقق في آخر الأيـــام، أو بالتـــدريج عبر التاريخ. وهذا كله يهدف إلى تعميق ولاء اليهودي للوطن الذي يعيش فيه ودمجه فـــي محيطـــه

الحضاري بحيث يتحول إلى مواطن في الشارع ويهودي في منزله. (ومع هذا تم صهينة اليهودية الإصلاحية، شأنها شان معظم التيارات والطوائف اليهودية الأخرى).

(جـ) اليهودية المحافظة: هي مجموعة من التيارات الفكرية تصدر عن الإيمان بأن العقيدة اليهودية تعبير عن روح الشعب اليهودي الثابتة (لا روح العصر المتغيرة)، وبأن هذه العقيدة تطورت عبر التاريخ وأخذت أشكالاً مختلفة، وبأنها من ثم قادرة على التكيف مع اللحظة التاريخية.

فاليهودية ليست مجموعة عقائد ثابتة وإنما هي تراث أخذ في التطور التاريخي الدائم. لكن أي تغيير يدخل على هذه العقائد لابد من أن يكون نابعاً من صميمها معبراً عن روح الشعب اليهودي وهويته. ويمكن القول بان اليهودية المحافظة ترى الدين اليهودي باعتباره، في واقع الأمر، الفلكلور اليهودي، أو الروح القومية اليهودية. وهي في هذا قريبة للغاية من الرؤية الصهيونية لليهودية، على الرغم من أن ما يهيمن على المؤسسة الدينية في إسرائيل هي اليهودية الأرثوذكسية.

ولا تؤمن اليهودية الإصلاحية أو المحافظة بأن الكتاب المقدس مرسل من الإله، وإنما هي مجموعة من الأقوال الحكيمة والأساطير الشعبية التي ألهم الخالق بعض الأنبياء بها لكنه لم يوح إليهم بها، ومن ثم، فمن حق المخلوق أن يتصرف بحسب ما يمليه العقل أو العصر عليه، فيغير ويبدل في الشعائر، بل يسقطها تماماً في بعض الأحيان. ولذا فإن الإصلاحيين والمحافظين لايلتزمون الوصايا (الأوامر والنواهي)، ولا يقيمون شعائر السبت أو الطعام الشرعي إلا على نحو جزئي من قبيل الحفاظ على الفلكلور. وقد أباحت اليهودية الإصلاحية والمحافظة ترسيم النساء حاخامات، كما أباحت الشذوذ الجنسي بين الذكور والإناث، بل ويرسم الآن الشواذ والسحاقيات حاخاميين. والأغلبية الساحقة من يهود العالم الغربي إثنية أو محافظة وإصلاحية، ولا يشكل الأرثوذكس سوى أقلية لا تزيد عن 5%. ويلاحظ إقبال أعضاء الجماعات اليهودية على العبادات الجديدة، مثل البهائية والماسونية وما يسمى ديانات العالم الجديد (الإيمان بأن للهرم شكلاً ذا قوة سحرية خارقة، على سبيل المثال).

أمريكيون وفلاشاه

إلى جانب هذه التقسيمات الأساسية توجد جماعات هامشية لا حصر لها، وقد أشرنا إلى السامريين الذين لا يؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة أساساً بنسختها المختلفة عن تلك المتداولة بين اليهود كافة ومركزهم هو جبل جرزيم في نابلس، لا جبل صهيون، وهم لا يؤمنون بمجئ الماشيح. وهناك أيضاً القراؤن الذين تمردوا على التلمود (بتأثير الفكر المعتزلى الإسلامي)، وزلزلوا اليهودية الحاخامية من جذورها، لكن لم يبق منهم سوى بضعة آلاف في كاليفورنيا وبعض مناطق روسيا وإسرائيل، وهناك بقايا يهود كايفنج في الصين، يعبدون يهوه الذي يسمونه تيين (السماء) ويتعبدون في معبدين يهوديين، أحدهما لعبادة الإله والآخر لعبادة الأسلاف، وهم لا يعرفون لا التلمود ولا التوراة، وملامحهم صينية تماماً، ويمكن أن نشير إلى يهوديتهم بأنها يهودية كونفوشيوسية (تماما مثلما نجد أن يهودية بني إسرائيل في الهند يهودية هندوكية). وهناك عشرات من الجماعات والطوائف والفرق اليهودية الأخرى الهامشية.

لكن بدلاً من الدخول في تفصيلات لا حصر لها، يمكن أن تقارن بين عينتين إحداهما مركزية وتضم يهود الولايات المتحدة الذين يشكلون أكبر تجمع يهودي في العالم، والأخرى هامشية وتضم الفلاشا الذين يشكلون تجمعاً صغيراً هامشيا منعزلاً.

ينتمي يهود الولايات المتحدة في الدرجة الأولي، إلى الجنس الأبيض، وأغلبيتهم الساحقة من أصل أشكنازى (ألماني أو روسي/ بولند). وتوجد قلة من السفارد، والقرائين، والكرمشاكى (وهم ينتمون إلى جماعة يهودية صغيرة في شبه جزيرة القرم، يتحدث أعضاؤها بالتترية، ويبدو أنهم من بقايا يهود الخزر). وهناك أيضا بعض الأمريكيين السود الذين يدعون "العبرانيين السود" وهؤلاء يؤمنون بعقيدة شبه يهودية تتحدث عن مؤامرة الإنسان الأبيض لفصل آسيا عن أفريقيا عن طريق شق قناة السويس ويدعون أنهم هم العبرانيون الحقيقيون، ومن ثم يرون أنهم هم وحدهم أصحاب الحق في استرداد إسرائيل والإستيطان فيها وحكمها. وتوجد جماعة منهم في شيكاغو هاجر أعداد منها إلى إسرائيل، حيث استقروا في جوار ديمونا وفي أماكن أخرى، وهؤلاء لا تعترف إسرائيل أو المؤسسات الحاخامية بهم، بطبيعة الحال، ولذا فهم يشكلون أقلية منبوذة داخل كل من الدولة الصهيونية والجماعة اليهودية في الولايات المتحدة.

أما الفلاشا، فهم من يهود إثيوبيا، وملامحهم لا تختلف من قريب أو بعيد عن ملامح بعض قبائل أو أقوام إثيوبيا. وإذا كان هناك بينهم من التنويعات، فهي تنويعات تشبه في بعض الوجوه التنويعات الموجودة في مجتمعهم. وهناك جماعة الفلاشا موراه، وهي جماعة مسيحية شبه يهودية منبوذة من الفلاشا كانت قد تنصرت منذ ما يقرب من قرنين من الزمان.

ومن الناحية الدينية، ينقسم يهود الولايات المتحدة إلى قسمين أساسيين: يهود إثنيون لا أدريون ويهود متدينون وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى إصلاحيين ومحافظين وتجديديين وأرثوذكس (ويوجد بعض الفرق الأخرى شبه الدينية من أتباع العبادات الجديدة). واليهود الدينيون في الولايات المتحدة يتعبدون في المعبد اليهودي (السيناجودج)، ويرأسهم حاخام، ولا يقيمون معظم الشعائر ولا يكترثون بالطعام الشرعي أو بشعائر السبت والطهارة والنجاسة.

أما الفلاشا، فهم أساساً خارج نطاق اليهودية الحاخامية، ولا يعرفون التلمود، وتختلف بعض شعائرهم عن شعائر اليهودية الحاخامية، فشعائر الطهارة والنجاسة عندهم مركبة وشاملة، ومع هذا فهم يقيمون شعائرهم كلها (وقد صدموا حينما هاجروا إلى إسرائيل بسبب انصراف أعضاء الدولة اليهودية عن الشعائر اليهودية)، ويرأس يهود الفلاشا قساوسة (يقال لهم قسيم)، وهم يعرفون نظام الرهبنة، إذ فيهم رهبان وراهبات، ويصلون في معبد يهودي يسمى المسجد، ويخلعون نعالهم قبل دخوله!

ومن ناحية اللغة فإن يهود الولايات المتحدة يتحدثون الإنجليزية، ويعرف بعض علمائهم العبرية والأرامية، كما توجد العبرية في بعض كتب الصلوات، أما يهود الفلاشا، فهم يتحدثون الأمهرية (ويتحدث بعضهم بالتيجرينية). ويتعبدون بالجعيزية، لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية، ويضم كتابهم المقدس بعض نصوص العهد الجديد.

ولكل جماعة يهودية خطابها الحضاري وفلكلورها الذي ينبع من محيطها الحضاري، ففي حالة يهود أمريكا، ينبع خطابهم الحضاري من محيطهم الحضاري الحالي (الأمريكي)، أو من محيطهم الحضاري السابق (روسيا ـ بولندا ـ ألمانيا ـ إنجلترا)، أما في حالة يهود الفلاشا، فهو ينبع كله من محيطهم الحضاري الإثيوبي الإفريقي. وفي حين أن اليهودي الأمريكي يرتدي البنطلون "الجينز" ويأكل "الهامبورجر" ويرقص الديسكو ويعيش في منزل عصري. وقد يطعم حديثه ببعض اللكمات اليديشية، ويتحدث بعض الحسيديين منهم اليديشية كما يحتفظ بعضهم بالأزياء التي كانوا يرتدونها في شرق أوربا، فإن يهودي الفلاشا يرتدي شالاً لا يختلف عما يرتديه من حوله من أبناء إثيوبيا، وهو يأكل

طعامهم، ويرقص الرقصات المعروفة في منطقته، ويعيش في كوخ مغطي بالحطب لا يختلف من قريب أو بعيد عن الأكواخ المجاورة، والوضع الاجتماعي ليهود أمريكا (نسبة الطلاق ــ الوظائف ــ المهن) ورؤيتهم للكون لا تختلف عن وضع الإنسان الأمريكي ورؤيته للكون. اللذين يختلفان بشكل جوهري عن وضع الفلاشا ورؤيتهم. ولهذا كله، فبينما كانت الدولة الصهيونية تتلهف لهجرة يهود الولايات المتحدة إليها، فإنها كانت ترفض هجرة الفلاشا حتى سنة 1973. ولئن كانت الدولة الصهيونية تشجع هجرتهم الآن، فليس ذلك بسبب أي تغيير طرأ على هويتهم وإنما بسبب تغييرات طرأت على سياسة الدولة الصهيونية، بل أيضاً على هويتها، ومدي حاجتها إلى العنصر البشري. بل إن الدولة الصهيونية بدأت ترحب بالفلاشا موراه، مع أن هؤلاء لا يمكن اعتبارهم يهوداً مهما يتم من تطويع للكمات قسراً.

جماعات يهودية

يمكن القول: إن الاختلافات بين يهود الولايات المتحدة ويهود الفلاشا هي حقاً اختلافات جذرية في جميع المجالات. لكن قد يقال إن مثل هذه الاختلافات العميقة موجودة عادة بين المركز والأطراف في أي تشكيل حضاري أو نسق ديني، فالجماعات المسيحية المتطرفة (المورمون مثلاً) مختلفة جوهرياً عن الأشكال المركزية المسيحية، والقول نفسه ينطبق على الإسلام، وفي هذا بعض الصدق. بيد أن وضع اليهود واليهودية يظل فريداً إلى حد كبير، فالمركز في اليهودية اختفي منذ أمد طويل، الأمر الذي سمح بتطور الأطراف على نحو مستقل تماماً عن المركز، أي مركز، وأصبح للأطراف شرعية لا تقل شرعية عما يسمي التيار الأساسي في اليهودية. وحتى قبل أن يختفي المركز، كان النسق الديني اليهودي يحوي تناقضات عميقة كثيرة، وعدد كبير من المفاهيم الدينية لم يستقر، فالسنهدرين (أعلى سلطة دينية يهودية في القرن الأول الميلادي وهي التي قامت بمحاكمة السيد المسيح) كان يضم الصدوقيين الذين كانوا يؤمنون بيهودية وثنية هرمية صارمة لا بعث فيها ولا إيمان، وإنما عقيدة جافة جامدة تدور حول القرابين والشعائر المنضبطة والمرتبطة بالأرض تماماً. لكن السنهدرين كان في الوقت ذاته يضم الفريسيين الذين كانوا يؤمنون بالبعث وبضرورة الإيمان باليوم الآخر (وكانوا يقومون بالتبشير باليهودية، وهو الأمر الذي لا تعرفه اليهودية). وعلى الرغم من الاختلافات العميقة، كان الصدوقيون والفريسيون يجلسون جنباً إلى جنب في السنهدرين، ويمارسون نشاطهم الديني، ولا يمكن تفسير هذا الوضع إلا بعدم تبلور النسق الديني اليهودي قبل تحطيم الهيكل وسقوط المركز، يضاف إلى هذا ما يمكن تسميته التعريف الثنائي لليهودي على أساس عقدي وعلى أساس عرقي الذي أسلفنا الإشارة إليه. ذلك كله سمح بظهور ما يمكن تسميته الخاصية الجيولوجية لكل من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية (أو العقائد والهويات اليهودية إن أردنا توخي الدقة) وهي هذه العقائد والهويات تأخذ شكل تركيب جيولوجي مكون من طبقات مختلفة، مستقلة ومتراكمة أو متجاورة، لكنها غير ملتحمة أو متفاعلة، كما أنها لا تخضع لأية معيارية مركزية. ومع هذا، فإن هذه العقائد كافة سميت "يهودية" وسمي كل هؤلاء "يهوداً"، وهو أمر كان مقبولاً أو يمكن تجاهله من قبل. لكن مع ظهور الدولة الصهيونية وبداية المواجهة بين هذه العقائد وتلك الهويات، تفجر السؤال الذي لا يزال يبحث عن إجابة. من هو اليهودي؟

لهذا كله، نجد أن مصطلح "يهودي" مصطلح عام ومقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة إن لـــم تكـــن منعدمة بسبب عموميته وإطلاقه، ولذا فإننا نفضل استخدام مصطلح "جماعات يهودية"، ونحرص على استخدامه قدر استطاعتنا (إلا إذا تطلب السياق غير ذلك)، فهو مصـــطلح يصـــنف هـــذه الجماعـــات اليهودية بحسبانها "يهودية"، لكنه يؤكد في الوقت نفسه عدم تجانسها باستخدام كلمة "جماعات".

الفصل الثاني

الخصوصية اليهودية

كلمة "ثقافة" لها معنيان أو استخدامان رئيسيان:

1ــ معني متسع ويعني أسلوب الحياة في المجتمع بكل ما ينطوي عليه من موروث مـــادي ومعنـــوي حي.

2ــ معني ضيق ويعني الأنشطة الإبداعية المتميزة في الآداب والفنون الأدائيـــة والتشـــكيلية. ونحـــن نستخدم الكلمة بكلا المعنيين.

وتشير معظم الكتابات التي تتناول أعضاء الجماعات اليهودية إلى "الثقافة اليهودية" و"التراث اليهودي" و"الموروث اليهودي". وهذه المصطلحات، شأنها شأن مصطلحات الاستقلال اليهودي الأخـــرى مثـــل "التاريخ اليهودي" و "القومية اليهودية" و "الخصوصية اليهودية" تفترض أن الجماعات اليهوديـــة فـــي العالم لها حضارة مستقلة وثقافة مستقلة وتراث مستقل عن المجتمعات التـــي يوجـــد فيهـــا أعضـــاء الجماعات اليهودية، وأن الإسهامات الحضارية المختلفة لليهود سواء في بابل أو فلسطين في العصور القديمة أم في فرنسا في العصور الوسطي في الغرب أم في بولندا والهند والصين في القرن الســـادس عشر أم في ألمانيا في القرن التاسع عشر أم في الولايات المتحدة واليمن في القرن العشرين، وبـــرغم تنوعها الحتمي والمتوقع، تعبر عن نمط واحد (وربما جوهر يهودي) يجعل من الممكن أن نرى كـــل هذه الإسهامات باعتبارها تعبيراً عن حضارة يهودية أو ثقافة يهودية واحدة، ويستند مفهـــوم الإثنيـــة اليهودية (وهو مفهوم صهيوني أساسي) إلى افتراض وجود مثل هذه الثقافة المستقلة.

الثقافة بدلاً من العرق

ويلاحظ أنه بعد ظهور هتلر، وبعد قيامه بذبح الملايين من أعضاء الجماعات اليهوديـــة والبولنـــديين والروس والغجر والمعوقين وغيرهم من البشر باسم التفوق العرقي الآري أسقط الصـــهاينة المفهـــوم العرقي للهوية اليهودية، وأخذوا يؤكدون بدلاً من ذلك المكون الثقافي الإثني كأساس للهوية. ولم يكـــن هتلر وحده هو الذي دفع الصهاينة للتخلي عن الأعتذاريات العرقية التي سادت في الخطاب الحضاري الغربي منذ منتصف القرن التاسع عشر. فعلي الرغم من محاولاتهم الأولي في إثبات أن اليهود شعب واحد (آين فولك) بالمعني العرقي، إلا أنهم وجدوا أن إثبات وحدة اليهود العرقيـــة أمـــر فـــي غايـــة الصعوبة. إذ يوجد يهود بيض ويهود سود ويهود صفر، ويهود من كل لون. ولذا لم يكن هناك مناص من التخلي عن الاعتذاريات العرقية الفجة على أن تحل محلها الاعتذاريات الإثنية المصـــقولة. وقـــد تعمق مفهوم الهوية الإثنية المستقلة حتى تغلغل تماماً في النسق الـــديني اليهـــودي ذاتـــه. فاليهوديـــة المحافظة، على سبيل المثال، تدور حول مفهوم التاريخ اليهودي والثقافة اليهودي. وقد أسس المفكـــر الديني الأمريكي اليهودي مردخاى كابلان فرقة يهودية تسمي "اليهودية التجديدية" تستند إلى الإيمـــان بالحضارة اليهودية والثقافة اليهودية والتراث اليهودي، وإلى أن هذا التراث شيء مقدس يشغل نفـــس المكانة التي شغلها الخالق في التفكير الديني اليهودي التقليـــدي. وغنـــي عـــن القـــول أن المشـــروع الصهيوني بأسره يستند إلى رفض الأساس الديني الغيبي للهوية اليهودية ويحل محلها فكـــرة الثقافـــة اليهودية المستقلة.

و"الخصوصية اليهودية" تعبير يفترض وجود سمات وخصائص (ثقافية أو عرقية) ثابتة، مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية، وهي التي تمنحهم خصوصيتهم وتفردهم وهي التي تحدد سلوكهم أينما كانوا وهي التي تشكل إطاراً حقيقياً لوجدانهم ولرؤيتهم للكون. أما سماتهم وخصائصهم الأخرى (غير اليهودي) فهي سمات وخصائص سطحية لا ترتبط بصميم وجودهم أو وجدانهم. وفكرة الخصوصية اليهودية والتفرد اليهودي فكرة محورية في كافة الأدبيات الصهيونية والمعادية لليهود، إذ إن أعضاء الفريقين يرون أن ثمة طبيعة بشرية أو هوية ثقافية يهودية مستقلة، ويذهب أعضاء الفريق الأول إلى أنها مصدر إبداع اليهود وإنتاجيتهم وحركيتهم بينما يرى أعضاء الفريق الثاني أنها مصدر عدمية اليهود وتخريبيتهم بل وإجرامهم. ورغم اختلاف النتائج التي يصل إليها أعضاء الفريقين إلا أن المقدمات الفلسفية والافتراضات الفكرية واحدة.

ومفهوم الخصوصية اليهودية مرتبط تمام الارتباط بمفهوم الثقافة اليهودية المستقلة. وسنركز على مفهوم الثقافة اليهودية المستقلة كمدخل لدراسة الخصوصية اليهودية.

استقلال الثقافة اليهودية

ونحن نذهب إلى أنه يمكن القول بأن ثمة تشكيلين حضاريين "يهوديين" يتمتعان بقدر محدود من الاستقلال عما حولهما من تشكيلات حضارية.

1ـ الثقافة العبرية القديمة، التي تمتعت بقدر من الاستقلال داخل التشكيل الحضاري السامي في الشرق الأوسط القديم. ومع هذا ظل هذا الاستقلال محدوداً للغاية بسبب بساطة الحضارة العبرانية ولضعف الدولة العبرانية ولتبعية الدولتين العبرانيتين (مملكة يهودا ومملكة يسرائيل) للإمبراطوريات الكبرى في الشرق الأوسط القديم (المصرية ـ الآشورية ـ البابلية ـ الفارسية). والتبعية السياسية، خاصة في العصور القديمة، كانت تؤدي إلى تبعية ثقافية بل وأحيانا دينية، ولذا استعارت الثقافة العبرانية الكثير من حضارات هذه الإمبراطوريات.

2ـ الثقافة الإسرائيلية (أو العبرية الحديثة). هذه الثقافة مستقلة ولا شك عن التشكيل الحضاري الغربي. ولكنها مع هذا لا تزال ثقافة جديدة لم تكتمل مفرداتها الحضارية بعد، كما أن الصراع الثقافي الحاد بين عشرات الجماعات اليهودية التي انتقلت إلى إسرائيل ومعها تقاليدها الحضارية (سفارد ـ أشكناز ـ يهود البلاد العربية ـ فلاشاه ـ بني إسرائيل من الهند ـ يهود بخاري ـ يهود قراءون ـ سامريون.. إلخ) يجعل من العسير بلورة مثل هذه الثقافة.

ولكن العنصر الأساسي الذي يتهدد عملية بلورة خطاب حضاري إسرائيلي مستقل هو أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع استيطاني يدين بالولاء الكامل للولايات المتحدة الأمريكية ويعاني من تبعية اقتصادية وعسكرية مذلة لها، فهو يدين لها ببقائه وبمستواه المعيشي المتفوق، ولذا فثمة اتجاه حاد نحو الأمركه يكتسح في طريقة كل الأشكال الإثنية الخاصة التي أحضرها المستوطنون معهم من أوطانهم الأصلية. ومما يعمق من هذا الاتجاه أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع علماني تماماً، ملتزم بقيم المنفعة واللذة والإشباع المباشر والنسبية الأخلاقية والاستهلاكية وهذا يتعارض مع محاولة التراكم الحضاري. ومع ظهور النظام العالمي الجديد والاستهلاكية العالمية، فإنه من المتوقع أن تزداد الأمور سوءاً.

وبخلاف الحضارة العبرانية القديمة والثقافة الإسرائيلية الجديدة لا يمكن الحديث عن ثقافة أو حضارة يهودية مستقلة أو شبه مستقلة. فاليهود، مثلهم مثل كافة أعضاء الجماعات والأقليات الدينية والعرقية

الأخرى، يتفاعلون مع ثقافة الأغلبية التي يعيشون في كنفها ويستوعبون قيمها وثقافتها ولغتها. وإن كان هناك درجة من الاستقلال لكل جماعة يهودية عن الأغلبية، فإن هذا الاستقلال لا يختلف عن استقلال الأقليات الأخرى عن الأغلبية، كما أنه لا يعني بالضرورة أن ثمة عنصراً عالمياً مشتركاً بين كل جماعة يهودية وأخرى، فالعبرانيون، منذ ظهورهم في التاريخ تبنوا حضارات الأمم الأخرى، ابتداء من اللغة، مروراً بالمفاهيم الدينية، وانتهاء بالطراز المعماري. وعلى سبيل المثال، لا يعرف طراز يهودي معماري، أو فن يهودي مستقل، فقد كان هيكل سليمان يتبع الطراز الآشوري الفرعوني (المصري)، ولم يكن يختلف كثيراً عن الهياكل الكنعانية. وكذلك تتبع المعابد اليهودية في العالم العربي الطراز العربي أما جنوب الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، فكانت المعابد اليهودية فيه تبني على الطراز النيوكلاسيكي السائد هناك آنذاك والفنانون التشكيليون اليهود في العصر الحديث، أمثال مارك شاجال ينتمون إلى تراث فني غربي ولا يمكن رؤيتهم في إطار ثقافة يهودية مستقلة ولا يعرف أيضاً تراث أدبي يهودي مستقل، فالأدباء اليهود العرب في الجاهلية والإسلام اتبعوا التقاليد السائدة في عصورهم. وكذلك الأدباء اليهود في الولايات المتحدة وإنجلترا، فإبداعهم مرتبط بالتراث الذي ينتمون إليه، وهذا أمر طبيعي.

لا توجد إذن ثقافة يهودية مستقلة، عالمية، تحدد وجدان اليهود وسلوكهم وإنما توجد ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيل الحضاري الذي يوجد اليهود داخله. ولذا يجدر بنا أن نتحدث عن ثقافة غربية يهودية أو ثقافة عربية يهودية، وبذا نخفض من مستوانا التعميمي حتى يتلاءم مع الظاهرة موضع الدراسة. ولكننا لو فعلنا ذلك فإننا سنكتشف، على سبيل المثال، أن الثقافة العربية اليهودية هي، في نهاية الأمر، جزء من الثقافة العربية، ولا توجد ملامح يهودية خاصة إلا في بعض الموضوعات وبعض المضامين المختلفة إذ تظل البنية العامة بنية عربية. ولنضرب مثلاً بيعقوب صنوع وشهرته "أبو نظارة" أحد رواد المسرح والصحافة الساخرة، وأحد رواد الحركة القومية في مصر. كتب عدة مسرحيات بالعامية المصرية إلى أن منعته الحكومة في عام 1872، وجه هجومه ضد الإنجليز الذي كانوا قد احتلوا مصر. ويثير أبو نظارة قضية الهوية اليهودية والثقافة اليهودية، إذ تصنفه المراجع الصهيونية باعتباره مثقفاً يهودياً وهو تصنيف لا يفسر أياً من الجوانب الهامة من حياته، أدبية كانت أم سياسية، وهي حياة لا تفهم في كليتها إلا بالعودة إلى حركيات المجتمع المصري وتقاليد الفكاهة المصرية وحركة التحرر الوطني في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ولتحاول على سبيل التجربة أن تفسر سيرة حياته الشخصية والفكرية في إطار الجيتو اليهودي في شرق أوربا أو قصة النجاح اليهودية في الولايات المتحدة أو عنصرية يهود جنوب إفريقيا، لو فعلت ذلك لاكتشفت مدى عجز مثل هذا النموذج التفسيري الذي يفترض وجود ثقافة يهودية واحدة عالمية.

وقل نفس الشيء عن الفنان المصري داود حسني، فهو ملحن وموسيقي مصري يهودي ويقرن اسمه بموسيقيين من أمثال سيد درويش وكامل الخلعي حيث لعب دوراً بارزاً في نهضة الموسيقي في مصر وفي إثرائها في العقود الأولي من القرن العشرين. وقد تميز داود حسني بشكل خاص في المسرح الغنائي المصري حيث لحن كثيراً من المسرحيات الغنائية، وكان أول من قام بتلحين أول أوبرا مصرية هي "شمشون ودليلة"، كما لحن أوبرا أخرى هي "ليلة كليوباترا" التي ألفها حسين فوزي. وقد تتلمذ على يديه كثير من المطربين والمرطبات الذين حققوا شهرة واسعة فيما بعد مثل أم كلثوم وأسمهان.

وتقوم الإذاعة الإسرائيلية بالإشارة إلى داود حسني باعتباره موسيقاراً يهودياً، وهو أمر يستحق التأمل دون شك، إذ إننا لو حاولنا البحث عن أي مكون يهودي في موسيقاه لأعيتنا الحيلة. ولذا يدهش كثير من المصريين الذين يعرفون أغانيه وأدواره، كما يدهش كثير من المتخصصين الذين درسوا موسيقاه، حينما يعرفون أنه "يهودي". ومن ناحية أخرى، فإنه كثيراً من الموسوعات والدراسات التي تتناول ما يسمى "الثقافة اليهودية" لا تذكر اسمه (فالثقافة اليهودية عادة ما تعني عندهم الثقافة اليديشية أو ثقافة يهود العالم الغربي).

وإذا أردنا بلورة وجهة نظرنا بشكل أكثر حدة (وربما طرافة) وإذا أردنا أن نبين المقدرة التفسيرية لنموذجنا المقترح (في مقابل النموذج الصهيوني القائل بالثقافة اليهودية ووحدتها) فلننظر إلى ظاهرة مثل الرقص الشرقي الذي يقال له البلدي (أي هز البطن). كان يوجد العديد من الراقصات المصريات اليهوديات في (كاباريهات القاهرة) في فترة الأربعينيات. ويوجد عدد لا بأس به منهن الآن في الولايات المتحدة (خاصة كاليفورنيا). ويوجد عدد من الراقصات "البلدي" في الدولة الصهيونية، بل وتوجد مدرسة متخصصة لتدريس هذا الفن في إسرائيل (وقد أثار المتدينون اليهود قضية بدلة الرقص الفاضحة، إبان إحدى جلسات الكنيست). هل أصبح الرقص الشرقي بذلك "فنا يهودياً" وجزءاً من "التراث اليهودي" أم أنه ظل فنا شرقياً، ولا يمكن فهمه أو حتى فهم اشتغال بعض اليهوديات به، إلا في إطار آليات وحركيات الحضارة العربية؟

وستتضح المقدرة التفسيرية لنموذجنا التفسيري المقترح (عدم وجود ثقافة يهودية واحدة) حينما نطبقه على الجماعات اليهودية في الحضارة لغربية، إذ سنلاحظ أنه لا توجد ثقافة يهودية غربية واحدة، وإنما ثقافات يهودية بعدد الدول التي يتواجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية، فثقافة يهود إسبانيا (السفارد) هي ثقافة إسبانية، تماماً مثلما أن ثقافة يهود ألمانيا ثقافة ألمانية، وثقافة يهود إيطاليا ثقافة إيطالية وثقافة يهود أمريكا ثقافة أمريكية. . وهكذا. ويقول المؤلف الإنجليزي اليهودي آرثر كوستلر إن ما يعرف بالتراث اليهودي، أو الثقافة اليهودية (بمعنى عام لا بمعنى ديني وحسب) أمر ليس من السهل تعريفه إذ إن كل ما يصدر عن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ليس يهودياً بالمعنى المحدد وليس جزءاً من تراث يهودي قائم. فالإنجازات الفلسفية والعملية والفنية لليهود تتوقف على معطيات ثقافة الشعوب الأخرى وحضاراتها.

المثقف اليهودي: من هو؟

والنموذج التفسيري الصهيوني بافتراضه وجود ثقافة يهودية واحدة مستقلة يخلق مشكلات لا حصر لها بخصوص عملية تعريف المثقف اليهودي. فلا يوجد نمط واحد لتناول المثقفين أو الأدباء اليهود للموضوعات اليهودية، فهناك من يتناول الموضوعات اليهودية من منظور يهودي ما مثل الروائي الصهيوني الأمريكي مائير لفين، ولكن هناك أيضاً من يتناولها من منظور معاد لليهود مثل الروائي الأمريكي (ناثانيال وست)، وثمة فريق ثالث يتجاهل الموضوع اليهودي تماماً في كل كتاباته أو في معظمها مثل الناقد الأمريكي اليهودي ليونيل ترلنج. وهناك فريق رابع يتناول الموضوع اليهودي ولكنه يضعه في سياق إنساني عام ويرى أن غربة اليهودي الحادة إن هي إلا تعبير عن أزمة الإنسان (العلماني) الحديث، كما يفعل المخرج السينمائي الأمريكي وودي ألين والروائي الروسي أيزاك بابل. وهذا التنوع يجعل من العسير إطلاق اصطلاح "مثقف يهودي" على كل هؤلاء. وفي عام 1989،

صدر كتاب بعنوان **The BlacKwell Companion to Jewish Culture** (أي دليل بلاكويل للثقافة اليهودية). لكن هذا المعجم لا يضم سوى أسماء المثقفين اليهود داخل التشكيل الحضاري الغربي، واستبعد كافة المثقفين اليهود من الشرق مثل يعقوب صنوع وداود حسني وغيرهما، ولعل محرري هذا المعجم قد فعلوا ذلك ليفرضوا نوعاً من الوحدة عليه. ولكن الوحدة في هذا الحالة هي وحدة غربية وليست يهودية.

ولكن المشكلة الأخرى هي أن هذا المعجم يضم أسماء مثقفين يهود معادين بشكل أساسي لليهودية ولا يمكن فهم فكرهم إلا في إطار تقاليد معاداة اليهود في الحضارة الغربية، فهل يصنف هؤلاء على أنهم مثقفون يهود يعبرون عن الثقافة اليهودية، بينما يستبعد المثقفون اليهود الشرقيون؟

وهناك مشكلة ثالثة وهي مجموعة المثقفين اليهود الذين يؤكدون انتمائهم للحضارة المسيحية باعتبارها مصدراً لوحيهم ولرؤيتهم للكون، مثل بوريس باسترناك، وإيليا هرنبرج (في مرحلة من مراحل حياته). بل هناك فيلسوف يسمى ليف شستوف ظهر اسمه في كتاب عن أهم ثلاثة فلاسفة يهود في العصر الحديث ومعه مارتن بوبر و روزنزفايج. ولكن المعجم الذي نتحدث عنه لم يورد اسمه لسبب وجيه هو أن هذا الفيلسوف الذي ولد لأم يهودية يعتبر فيلسوفاً مسيحياً لأنه يتحدث عن واقعة صلب المسيح باعتبارها أهم حدث تاريخي. ولكن رغم استبعاد معجم بلاكويل لاسمه، فإننا نجد أن اسمه ورد في الموسوعة اليهودية. وهناك أيضاً حالة نعوم تشومسكي، وهو من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث ويجيد العبرية وعاش بعض الوقت في إسرائيل، ومع هذا تهمله كل الموسوعات اليهودية ربما بسبب عدائه لإسرائيل والصهيونية. فهل موقف المثقف اليهودي السياسي يسقط عنه إثنيته اليهودية؟

وإنكارنا لوجود ثقافة يهودية مستقلة ومثقفين يهود خالصين لا يعني إنكار وجود مكون يهودي أو عناصر يهودية مستقلة. كل ما نذهب إليه أن مثل هذه العناصر، إن وجدت، فليس لها مركزية تفسيرية، أي أنه لتفسير بنية فكر فيلسوف أو مفكر يهودي ما، وطبيعة أدب أديب يهودي ما، فعلينا تبني نماذج تفسيرية مشتقة من الحضارة التي ينتمي إليها هذا المفكر أو الأديب اليهودي بدلاً من العودة للتوراة والتلمود وتاريخ العبرانيين والكنعانيين (كما يفعل الصهاينة والمعادون لليهود). فالنماذج المشتقة من تلك الحضارة ذات مقدرة تفسيرية تفوق بمراحل مقدرة النماذج المشتقة من الثقافة اليهودية ويمكن دراسة العناصر اليهودية باعتبارها عناصر مكملة، دون أن تكتسب مركزية تفسيرية. انطلاقا من هذا الإطار التفسيري نطرح في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية نموذجا تفسيريا جديداً، مشتقا من الحضارة الغربية الحديثة. فنحن نذهب إلى القول بأن هذه الحضارة قد هيمن عليها بالتدريج (منذ عصر نهضتها) ما نسميه بالنموذج الحلولى الكموني. والحلولية الكمونية تعني أن الإله قد حل في المادة (الطبيعة والإنسان) واصبح غير مفارق لها، وبذلك أصبح العالم (الإنسان والطبيعة) مكتفياً بذاته، لا يحتاج إلى قوة خارجة عنه، ويمكن تفسيره بدراسة قوانين الحركة الكامنة (الحالة) فيه، هذه الحلولية الكمونية هي الإطار الفلسفي العام للحضارة الغربية بعقلانيتها المادية منذ فرانسيس بيكون وديكارت مروراً بهيجل وانتهاء بنيتشه (الذي ذكر أوربا بأن الإله الحال في المادة قد مات وأصبح غير قادر على أن يعطي للعالم معنى). والحلولية الكمونية هي الأرضية التي يدخل عليها اليهود إلى الحضارة الغربية. وسيادة هذه الرؤية الحلولية الكمونية، أمر لا دخل لليهود فيه، وإنما خاضع لحركيات الحضارة الغربية.

هذا هو النموذج التفسيري الأكبر. عند هذه اللحظة يمكننا أن ننظر إلى العناصر اليهودية فتراها تشير إلى أن العقيدة اليهودية ذاتها كانت قد أصبحت عقيدة حلولية كمونية بعد هيمنة القبالاه عليها منذ القرن الرابع عشر، وأن الميراث الحلولي للمثقفين اليهود في العصر الحديث (ابتداء بإسبينوزا وانتهاء بدريدا) قد ساهم ولا شك في جعلهم أكثر استعداداً لقبول الحضارة الغربية الحديثة، بحلوليتها وكمونيتها. ويمكن أن نشير إلى تصاعد معدلات العلمنة بين الجماعات اليهودية، بدرجات تفوق المعدلات السائدة في المجتمع الغربي (كما هو الحال دائماً مع الأقليات). ويمكن أن نشير كذلك إلى أن إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بالغربة وعدم الأمن (كما هو الحال أيضاً مع أعضاء الأقليات) جعلهم تربة صالحة وخصبة لتقبل الحضارة الغربية الحديثة.

الشك المعرفي والأخلاقي

ويمكن أخيراً أن نذكر أن موقف كثير من المثقفين اليهود يتسم بأنه موقف نقدي جذري من الحضارة الغربية، يتسم بالشك المعرفي والأخلاقي وسيطرة الفلسفات العدمية. كل هذه العناصر اليهودية ساهمت ولا شك في أن تجعل المثقفين اليهود أكثر استعداداً لتقبل الحضارة الغربية الحديثة وأكثر قدرة على التعبير عنها ــ أي أن المكون اليهودي في ثقافة المثقف اليهودي الغربي قد يفسر حدة نبرته وجذريتها وعمق عدميتها وحلوليتها. كما قد يفسر تزايد عدد المثقفين اليهود من الثوريين والعدميين ودعاة العقلانية المادية، ولكنه لا يفسر بأية حال ظهور المنظومة الحضارية الغربية الحديثة العقلانية المادية، فهذا مرتبط ــ كما أسلفنا ــ بآليات المجتمع الغربي، الثقافية والاقتصادية.

بل إننا نذهب إلى أن بروز أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية الحديثة، ناجم عن انتمائهم إلى هذه الحضارة واندماجهم فيها واستيعابهم لها، لا انعزالهم عنها ويتزايد بروزهم بمقدار تخليهم عن عزلتهم واستقلالهم. وليس من قبيل الصدفة أن أول مفكر يهودي بارز في الحضارة الغربية الحديثة هو إسبينوزا الذي تخلي عن يهوديته. وقد أعلن هايني أن التنصر هو تأشيرة الدخول للحضارة الغربية، فتنصر هو ذاته وكما فعل أبو ماركس وأولاد هرتزل وأولاد موسى مندلسون ونصف يهود برلين في القرن التاسع عشر. . الخ). ولكن الأدق هو القول: إن التخلي عن العقيدة اليهودية (وليس بالضرورة التنصر) هو تأشيرة الدخول فليس مطلوباً من أحد التنصر، باعتبار أن مرجعية الحضارة الغربية لم تعد المسيحية وإنما العقلانية المادية أو الحلولية الكمونية. وينبغي الإشارة إلى أن الكمون اليهودي قد ينصرف إلى بنية فكر المثقف اليهودي و إلى الموضوعات الكامنة، وليس إلى مضمونها الواضح. بل انه يمكن أن يكون المضمون الواضح عالمياً وإنسانياً بل ومعادياً لليهود أو الصهيونية، وتظل البنية والمقولات الأساسية الكامنة يهودية بالمعني المحدد الذي نطرحه، كما هو الحال مع إسبينوزا ودريدا وفرويد وكافكا. فإسبينوزا، وقف موقعاً رافضاً تماماً لكل الأديان، بل واختص اليهودية بالهجوم الشرس، وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن كثير من المفكرين الغربيين من عنصر النهضة، وهيمنة العقلانية المادية. ومع هذا لا يمكن فهم حدة هذا الرفض وهذا الهجوم إلا بالعودة للقبالاه اللوريانية والتراث المارانى.

واهتمام فرويد الحاد بالجنس يمكن رؤيته كتعبير طبيعي عن تصاعد معدلات العلمنة ومحاولة رد كل شيء إلى عنصر واحد كامن/ حال (الجنس في حالة فرويد). ولكن القبالاه اللوريانية كانت قد قامت

بإنجاز هذا معرفياً وبشكل متبلور قبل ذلك بعدة قرون. وقد وصف أحد المراجع القبالاه بأنها جنست الإله، وألهت الجنس، أي جعلته نموذجاً تفسيريا كلياً ونهائياً، يرد له كل شيء. وهذا ما فعله فرويد.

وتلجأ بعض المراجع لحيلة رخيصة لتأكيد وجود حضارة يهودية مستقلة وهوية يهودية ثقافية مستقلة نابعة منها، فتتحدث موسوعة الثقافة اليهودية عن هذا الزي "اليهودي الصميم" الذي يرتديه يهود المغرب والذي يسمى **Keswa Kubra** وهي "الكسوة الكبيرة"، وتكتب الكلمة بحروف لاتينية دون ترجمة، فيتصور القارئ الذي لا يعرف العربية أن هذه كلمة عبرية أو كلمة عربية عبرية! ويوجد للزي اليهودي الصميم شيء يسمى **Cum** وهو الكم. ويأكل أعضاء الجماعات اليهودية في بخاري طعاماً يهودياً مميزاً يسمى **Yachni** أي الياخني، أما في اليمن فهم يأكلون طعاماً خاصاً للغاية لم نسمع عنه قط من قبل يسمى **Khubz** أي خبز.

أما في إسرائيل، بلد العجائب، فيأكلون طعاماً موغلاً في يهوديته اسمه **Falafel** أي الفلافل والتي اكتشفت أنها طعام إسرائيلي فريد حينما كنت أعيش في مدينة نيويورك. ورؤساء يهود الفلاشاه، نوع خاص من الحاخامات، يسمونهم "قسيم" وهي صيغة الجمع العبرية لكلمة "قس" العربية (وربما الأمهرية) التي اقتبسها يهود الفلاشاه الذي دخلت على يهوديتهم عناصر مسيحية كثير! وحينما يحاول الإسرائيليون أن يرقصوا فهم يرقصون رقصة يهودية صميمة تسمى "الهورا" (من اصل روماني) أو رقصة يهودية أخرى. تسمى "الدبكة"! وحينما ترتدى مضيفات شركة العال زي الفلاحة الفلسطينية، فهذا زي إسرائيلي نابع من الثقافة اليهودية. وحينما أسس متحف في قرى حيفا على هيئة قرية عربية أخبر كتيب المعرض الزائر أن هذه قرية من حوض البحر الأبيض المتوسط حتى يمكن تحاشي ذكر كلمة "فلسطين"، وحتى يختبئ الأصل الحقيقي للمنتج الحضاري. لكن هل يمكن تأسيس ثقافة من خلال مثل هذا التلفيق الرخيص والعنف اللفظي الذي يبعث على الرثاء؟ قد ينجح الصهاينة في تأسيس بعض المستوطنات من خلال العنف والبطش العسكري، ولكن التجذر الحضاري أمر آخر والقلاع الصليبية المهجورة التي لا يبكي أحد على أطلالها، شاهد على ذلك.

لا يوجد استقلال ثقافي يهودي، ومن ثم فلا يمكن الحديث عن خصوصية يهودية، إذ إن مفهوم الخصوصية ليس له ما يسانده في واقع اليهود الثقافي. فثقافات أعضاء الجماعات اليهودية بل ومعتقداتهم الدينية تتسم بقدر عال من عدم التجانس النابع من وجودهم في مجتمعات شتى يتكيفون مع حضاراتها ويستوعبونها ويستمدون خصوصياتهم منها (لا خصوصية يهودية واحدة عالمية، كما يدعي الصهاينة والمعادون لليهود) ولذا فقد يكون من الأدق الحديث عن خصوصيات الجماعات اليهودية، تماماً مثل حديثنا عن ثقافات الجماعات اليهودية، لا عن خصوصية يهودية واحدة عالمية مستمدة من معجم حضاري واحد.

الفصل الثالث

إشكالية الإحصاءات

حينما تنشر إحدى الصحف أن عدد سكان إنجلترا هو كذا فنحن عادة ما نقبل هذا (كحقيقة صلبة)، فالأرقام أرقام، وكما نقول دائماً (واحد + واحد= اثنين). ولكن الأرقام في واقع الأمر ليست حقائق صلبة، إذ يمكننا تفسيرها وتحليلها والوصول إلى نتائج مختلفة حسب المنهج الذي نتبعه. ولذا لو دققنا النظر لوجدنا أن بساطة الأرقام تخبيء الكثير من الإشكاليات. فيمكن مثلاً أن نسأل: هل هذا هو عدد سكان إنجلترا بمعني المقيمين فيها، بما في ذلك المهاجرون واللاجئون السياسيون، أم أنها تعني المواطنين الإنجليز؟ وإن كنا نعني المواطنين الإنجليز، فهل هذا يضم من منهم على وشك الحصول على الجنسية؟ وهل يضم أيضاً المواطنين الإنجليز المقيمين في الخارج؟ وماذا عن الأقليات، هل ذكرت أعدادهم؟ وهل هناك ذكر للأقلية الإسلامية، أم أن مفهوم الأقلية في إنجلترا مفهوم عرقي وحسب؟ وهذا قليل من كثير.

يهودي بشكل ما

وإذا كان (تعداد) الشعب الإنجليزي مسألة خلافية، فإن تعداد اليهود إشكالية لم يظهر لها حل بعد، ومن أهم هذه الإشكاليات تعريف (اليهودي): فهل اليهودي هو من يتبع تعاليم دينه أم أنه من يرى نفسه يهودياً أم هو من يراه الآخرون كذلك؟ وفي هذا العالم التي تزايدت فيه معدلات العلمنة، يسود التعريف العلماني للهوية اليهودية (اليهودي هو من يرى نفسه كذلك). وفي غياب مؤسسة دينية مركزية تقوم بعملية التعريف والفرز، تتداخل الحدود ويصعب تعريف اليهودي. ولذا، نجد أن بعضاً من غير اليهود قد يغيرون قناعاتهم فجأة ويقررون أنهم يهود، والعكس أيضاً ممكن.

ولإيضاح بعض جوانب المشكلة التي يجابهها دارسوا تعداد الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة، يمكن أن نشير إلى النقاط التالية:

1ـ يضم الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي (1991) دراسة عن تعداد يهود العالم. وقد رأى كاتب المقال أن يتناول موضوعه من خلال ثلاثة تعريفات أو مستويات:

القطاع الأساسي من السكان اليهود (بالإنجليزية: كور جويش بوبيوليشن) ويضم كل يهودي يعلن أنه يهودي ــ بغض النظر عن كون مضمون يهوديته حقيقي أو وهمي، ديني أو إثني، قوى أو ضعيف، وعادة ما توضع هذه المجموعة مقابل القطاع الهامشي من السكان اليهود (بالإنجليزية: بريفيرال جويش بوبيوليشان)، وهي تضم القطاعين التاليين:

القطاع الموسع من السكان اليهود (بالإنجليزية: إكستندد جويش بوبيوليشن) ويضم القطاع الأساسي إلى جانب اليهود الذين تخلوا عن دينهم (وتبنوا أو لم يتبنوا ديناً آخر) ولكنهم من أصل يهودي.

القطاع الممتد من السكان اليهود (بالإنجليزية: إنلارجد جويش بوبيوليشن)وتضم إلى جانب القطاعين السابقين كل من يعيش في بيت يهودي (سواء أكان يهودياً أو غير يهودي).

وبطبيعة الحال، تتزايد الأعداد وتتناقص حسب المعيار المستخدم. وفي عصر وصلت فيه نسبة الزواج المختلط إلى ما يزيد على 50%، فإن القطاع الثالث يضم عدداً كبيراً للغاية، مع أن تضخم هذا القطاع هو في واقع الأمر دليل على تزايد اندماج اليهود واختفائهم. وقد بلغت الحيرة بأحد المراجع حدا جعله

يستخدم اصطلاح "يهودي بشكل أو آخر" "يهودي بشكل ما" (بالإنجليزية: جويش إن سم وبي) لحل مشكلة التعريف.

2ـ نشرت مؤخراً دراسة ذكرت أن عدد يهود الولايات المتحدة هو 8،6 مليون. ثم أضافت الدراسة أن 2،1 مليون منهم يهود لا يؤمنون باليهودية ويندمجون في مجتمعهم بسرعة) ومن المؤكد أن أعداداً كبيرة منهم ينضمون للعبادات الجديدة مثل البهائية وهارى كريشنا). ومنهم 3،2 مليون يمارسون عقيدة أخرى هي المسيحية، أي أنه بين 8،6 مليون يهودي يوجد 5،2 مليون يمارسون عبادات أخرى. وورد في دراسة ثانية أن عدد يهود الولايات المتحدة 8,400,000 وهو رقم أعلى بكثير من الرقم السابق. ولكن الدراسة تضيف أن من بينهم 2,70,000 من (أصول يهودية) ولا يعتبرون أنفسهم يهوداً (أي أن العدد هو 5,700,000). والسؤال الذي يطرح نفسه هو: إن كان هؤلاء ليسوا يهودا من منظور الشريعة اليهودية، ولا من منظور الإثنية اليهودية، ولا من منظور أنفسهم أو جيرانهم، فلماذا تضمنهم التعداد أساساً؟ وهل الهدف هو خلق إشكاليات حيث لا إشكاليات؟ أم الهدف هو زيادة العدد لتضخيم (القوة اليهودية)؟

3ـ من المشاكل الكبرى التي تواجه دارسة تعداد اليهود في العالم، بخاصة في الولايات المتحدة، أعضاء الزيجات المختلطة وأبناؤهم فأحياناً، يدخل يهودي في علاقة زوجية مع طرف غير يهودي، ثم يتهود الطرف الآخر بشكل صوري، ويعتبر نفسه يهودياً إرضاء للطرف اليهودي أو لعائلته. ثم قد يصر الطرف اليهودي على أن يكون الأطفال يهوداً، فيوافق الطرف غير اليهودي. ولكن ما يحدث في معظم الأحيان أن الأطفال ينشأون يهوداً اسماً دون أن يكونوا يهوداً فعلاً. ولأن اليهودية الأرثوذكسية لا تعترف بأبناء الزيجات المختلطة، أو بالمتهودين على يد حاخام إصلاحي أو محافظ، أو بمن ولد لأب يهودي، فإن هناك عدداً كبيراً من اليهود في الولايات المتحدة يهودا اسماً وحسب، أو يهود من وجهة نظر إصلاحية أو محافظة أو إثنية، ولكنهم غير يهود من وجهة نظر أرثوذكسية.

موت الشعب اليهودي

من القضايا التي تثار الآن في علم الاجتماع الغربي قضية (موت الشعب اليهودي)، وهي عبارة وضعها عالم الاجتماع الفرنسي (اليهودي) جورج فريدمان، وتشير إلى ظاهرة تناقص أعضاء الجماعات اليهودية في العالم إلى درجة اختفاء بعض هذه الجماعات وتحول الباقي منها إلى جماعات صغيرة (لا أهمية لها من الناحية الإحصائية). ورغم أن فريدمان طرح هذه الإشكالية في الستينيات، إلا أنه تم رصدها مع بداية اختفاء اليهود الألمان (كتبت عام 1908) مما سماه الضعف السكاني الذي قد يؤدي إلى اختفاء يهود ألمانيا تماماً. وفي عام 1944 أشار يوريا إنجلمان في كتابه ظهور اليهود في العالم الغربي إلى ما سماه العملية ذات الأبعاد الثلاثة: تناقص المواليد ـ تزايد الوفيات ـ تزايد معدلات الاندماج، والتي ستؤدي إلى تفسخ السكان اليهود بالكامل.

يمكن أن نورد الأسباب التالية التي تؤدي إلى تناقص أعداد اليهود فعلاً (من دون حدوث مذابح أو انتشار أوبئة):

1ـ تزايد معدلات الاندماج، فكثير من اليهود الذين يندمجون يخفون هويتهم اليهودية وانتماءهم اليهودي ويسجلون نفسهم بحسبانهم غير يهود. ويبلغ عدد اليهود الذين أخفوا هويتهم في الاتحاد

السوفيتي مليونا ونصف المليون تقريبا. كما يوجد الآلاف من اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية بشهادات تعميد أصدرها الفاتيكان لهم في الإرهاب النازي وقد آثروا أن يحتفظوا بهويتهم الجديدة.

2ــ من أهم أسباب اختفاء اليهود الزواج المختلط إلى درجة لم يشهدها يهود العالم من قبل. وقد بلغت معدلات الزواج المختلط في الولايات المتحدة ما يزيد على 50%، وبلغت في الاتحاد السوفيتي أحيانا 80%، وذلك في الأماكن التي تقطنها أقليات يهودية صغيرة بعيدة عن مراكز التجمعات اليهودية الكبرى. وفي كثير من الأحيان يسقط الزوج اليهودي في الزيجة المختلطة هويته حي لا يسبب الحرج لزوجته. ولا يعوض عدد المتهودين، من أجل الزواج، من عدد المنتصرين للسبب نفسه. ويلاحظ أنه بتأثير حركة التمركز حول الأنثى، بدأت الأنثى اليهودية، التي كانت تعد في الماضي العمود الفقري للهويات اليهودية تندمج في المجتمع الذي تعيش في كنفه بمعدلات تقترب من معدلات الذكور، وهي تقبل الآن على الزواج المختلط بعد أن كان ذلك مقصوراً تقريباً على الذكور. ويلاحظ أن أبناء الزواج المختلط يكونون عادة إما غير يهود وإما غير مكترثين باليهودية.

أما بالنسبة إلى انخفاض نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، فمن المعروف أنها تصل في الوقت الحاضر إلى واحدة من أقل النسب في العالم، إذ بلغت 16 في الألف. ويعود ذلك إلى الأسباب التالية (مع ملاحظة أن بعض هذه الأسباب ليس مقصوراً على أعضاء الجماعات اليهودية، وإنما هو ظاهرة عامة في المجتمعات الغربية التي توصف بـ "المتقدمة"):

1ــ تفشي قيم المنفعة واللذة والفردية والأنانية في المجتمعات المسماة متقدمة، وهي قيم تتناقض مع فكرة الأسرة والزواج وإنجاب الأطفال وتنشئتهم، بكل ما يتضمن ذلك من قيد على الحرية وتخل عن المتعة الحسية المباشرة.

2ــ الزواج المتأخر، وهو ظاهرة عامة في هذه المجتمعات ناجمة عن تصدع مؤسسة الأسرة، وعن امتداد الوقت الذي تستغرقه العملية التعليمية، وتأخر الاستقلال الاقتصادي للأبناء.

3ــ تزايد عدد الشذاذ جنسياً في هذه المجتمعات بنسبة تصل في بعض مدن الغرب إلى 30%، وهناك نسبة عالية منهم من أعضاء الجماعات اليهودية. وينتمي معظم الشذاذ إلى المرحلة العمرية النشيطة جنسياً، وهذا يعني أن عدداً كبيراً من الذكور والإناث ينسحب من عملية الإنجاب.

4ــ انسحاب كثير من النساء من عملية الإنجاب في المجتمعات المسماة متقدمة بتأثير من حركة التمركز حول الأنثى، التي تجعل أي نشاط أنثوي خاص (مثل الإنجاب) أمراً سلبياً أو معوقاً لنشاط المرأة في الحياة العامة. ومن المعروف أن عدداً كبيراً من قيادات هذه الحركة من اليهوديات، وأن نسبة اليهوديات المنخرطات فيها تفوق المعدل القومي.

5ــ تفسخ الأسرة اليهودية وتزايد نسبة الطلاق، وهما أمران يزيدان في الإحجام عن الإنجاب.

6ــ تركز أعضاء الجماعات اليهودية في المدن، فهناك خمس مدن أمريكية تضم أكثر من نصف الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة (تضم نيويورك 1,450,000، لوس أنجلوس 490,000، شيكاغو الكبرى 348,000، ميامى 199,000، فيلادلفيا 250,000). وأكثر من نصف مجموع يهود أمريكا اللاتينية (200,000) موجود في بوينس أيريس، وأكثر من نصف يهود جنوب أفريقيا (63,000) موجود في جوهانسبرج، وأكثر من نصف يهود فرنسا (380,000) موجود في باريس، وهكذا. أما النصف الثاني فموزع على مدن كبرى أخرى، أي أن الأغلبية العظمي من الجماعات

اليهودية موجودة في مراكز حضرية، ومن المعروف أن المدن لم تستطع عبر التاريخ أن تحتفظ بكثافتها السكانية من خلال التزايد الطبيعي، لأن سكان المدن من أقل القطاعات البشرية خصوبة. وقد أدى هذا كله إلى تناقص عدد المواليد. كما أن مستوى العناية الصحية آخذ في التحسن، وهو ما يؤدي إلى زيارة معدلات العمر ونسبة كبار السن الذين يعتبرون شريحة غير خصبة من السكان. ويلاحظ أن 16% من أعضاء الجماعات اليهودية تتجاوز أعمارهم 65 عاماً، وتصل نسبة المسنين بينهم إلى 29% أحيانا.

وقد أدى كل هذا إلى تناقص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية حتى أصبحت واحدة من أقل النسب في العالم. وأي جماعة إنسانية، حتى تعيد إنتاج نفسها بيولوجياً، لابد أن تنجب الأنثى التي ينتمي إليها 9،2 طفل في المتوسط لكن المرأة اليهودية في الولايات المتحدة قد تكون أقل الإناث خصوبة في العالم، فالإناث في المرحلة العمرية 35ــ 44 ينجبن 1,57 طفلاً، أما المرحلة العمرية 25ــ34 (وهي المفروض أكثر المراحل خصوبة) فالإناث ينجبن فيها 87. أي أقل من طفل واحد، مما يدل على أن منحني التناقص آخذ في الازدياد.

وقد بلغ عدد اليهود 13,837,500 عام 1967، وبلغ 12,988,600 عام 1982، أي أن عدد اليهود نقص بنحو المليون في هذه الفترة دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعي. ويبلغ عدد اليهود حالياً 13,092,000ــ أي أن عددهم ظل ثابتاً قرابة ربع قرن. ويتوقع معهد اليهودية المعاصرة التابع للجامعة العبرية بالقدس أن يصل عددهم إلى 13,428,000 عام 2010. ولكن هناك توقعات أكثر تشاؤماً من منظور صهيوني. فيذهب صموئيل لا يبرمان ومورتون واينفيلد إلى أن عدد يهود الولايات المتحدة سيصل إلى 3,9 مليون عام 2070. أما إلياهو برجمان (بمركز هارفارد للدراسات السكنية) فهو أكثر تشاؤماً إذ يرى أنه حينما تحتفل الولايات المتحدة بعيدها المئوي الثالث (2076) لن يتجاوز عدد اليهود 944,000 (أي أقل من مليون). مع ملاحظة أن كلمة (يهودي) ــ كما أسلفنا ــ يتلاعب بها الديموجرافيون اليهود حتى يزيدوا من أعداد اليهود في العالم. وفيما يلي إحصاء بعدد اليهود في العالم حالياً (عام 2000) وبعد عشرة أعوام (2010):[1]

أماكن التواجد	العدد الحالي	العدد المتوقع في عام 2010
إسرائيل	4,790,000	5,644,000
أمريكا الشمالية	6,062,000	5,939,000
أمريكا الوسطي والجنوبية	428,000 (تضم الأرجنتين وحدها 202 ألف)	398,000
أوربا	1,138,000 (تضم فرنسا وحدها 522الف)	1,066,000
الاتحاد السوفيتي السابق	540,000	180,000
آسيا وشمال أفريقيا	28,000	26,000
جنوب أفريقيا+ منطقة المحيط	195,000	175,000

[1] المصدر: معهد اليهودية المعاصرة المسمي باسم (أ.هيرمان) والتابع للجامعة العبرية بالقدس.

الهندي		
الإجمالي	13,093,000	13,428,000

ويقال إن نصف يهود العام سيكونون في إسرائيل بحلول منتصف القرن المقبل، وليس ذلك بسبب الهجرة، وإنما بسبب نقص الجماعات اليهودية في الخارج، واختفاء معظمها، وتركز أغلبيتها في الولايات المتحدة.

ولذا يمكننا القول إن يهود العام سينقسمون إلى قسمين أساسيين:

1ــ أمة تتحدث بالعبرية في إسرائيل، ليس لها سوى علاقة واهية بالعقيدة اليهودية أو بالتاريخ اليهودي (أي تواريخ الجماعات اليهودية). وتعتمد في وجودها على حكومة الولايات المتحدة، وتوجهها الحضاري استهلاكي متأمرك. ويمكن أن نستخدم هنا مصطلح جورج فريدمان للإشارة إلى الإسرائيليين بأنهم (أغيار يتحدثون العبرية).

2ــ جماعة يهودية في الولايات المتحدة، تنقسم بدورها إلى قسمين:

(أ)قلة صغيرة متمسكة بتعاليم الدين اليهودي، وتحاول قدر استطاعتها أن تنفذ تعاليمه وتفهم شعائرة.

(ب) أغلبية باهته الهوية لا تمارس الشعائر الدينية، وإنما تقيم بعضها باعتباره شكلاً من أشكال الفلكلور. وهي تحاول أن تحافظ على بقايا الموروث الثقافي اليهودي الذي يعود بجذوره إلى شرق أوربا، على الرغم من تزايد معدلات أمركتها.

وهذا يعني أن الدياسبورا اليهودية ستصبح أساساً الدياسبورا الأمريكية، أو الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة، أي أن أعضاء الجماعات اليهودية ستصبح جزءاً لا يتجزأ من الشعب الأمريكي، بعد أن كانت جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستيطاني الغربي (في أمريكا الشمالية واللاتينية وجنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا).و إذا أخذنا في الاعتبار اعتماد إسرائيل شبه الكامل على الولايات المتحدة، فإنه يمكننا القول بأن يهود العالم سيعيشون في القرن المقبل داخل الولايات المتحدة، أو أنهم سيدورون في فلكها الحضاري والاقتصادي والسياسي.

ستة مليون ؟!

بدأت ظاهرة (موت الشعب اليهودي) مع نهاية القرن التاسع عشر، بعد حدوث الطفرة السكانية الثانية (التي سنتناولها في الفصل الثالث)، أي قبل الحربين العالميتين الأولى والثانية. وهنا يمكن أن نطرح قضية (ستة الملايين). هل تم حرق ستة الملايين كما يرد في كثير من المراجع الغربية، أم أن أعداداً منهم اختفت من خلال التناقص الطبيعي؟ ويمكن أن نشير إلى أن ثمة عناصر أخرى ساعدت على تصعيد هذا التناقص في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر يمكن أن نذكر منها ما يلي:

1ــ أسباب تؤدي إلى العزوف عن الإنجاب و إلى تناقص الخصوبة ومعدلات التكاثر.

(أ)أدت الهجرة اليهودية الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر إلى انتقال أعداد كبيرة من اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية ويقال إن هجرة اليهود قضت تقريباً على اليهود في المرحلة العمرية من عشرين إلى أربعين عاماً، وهي مرحلة الخصوبة التي تجعل بإمكان الجماعة أن تعيد إنتاج نفسها. والإنسان المهاجر أقل خصوبة من الإنسان المستقر.

(ب) كان أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة، أي بأعمال التجارة والمال. وكانوا، لهذا، مركزين إما في المدن أو المناطق شبه الحضرية. ومع منتصف القرن التاسع عشر، تصاعد هذا الاتجاه وتزايد تركزهم في المدن بحيث أصبحت أغلبيتهم الساحقة تسكن في المدن عشية الحرب العالمية الثانية.

(جـ) كانت هناك عناصر أخرى أدت إلى عزوف اليهود عن الإنجاب، من بينها تحسن مستواهم المعيشي، والقلق الذي كان يعيشه أعضاء الجماعات اليهودية في الفترة بين الحربين وإبان الحرب العالمية الثانية، وكذلك تزايد معدلات العلمنة وبالتالي زيادة التوجه نحو اللذة وتحقيق الذات، الأمر الذي يقوض من الرغبة في إنجاب الأطفال.

وبالفعل يلاحظ تناقض أعداد اليهود وضمنهم يهود اليديشية. فبعد أن كانوا يتمتعون بأعلى نسبة خصوبة وتكاثر بين شعوب الإمبراطورية القيصرية في منتصف القرن التاسع عشر، انخفضت النسبة إلى أقل النسب على الإطلاق في عام 1926، فبعد أن كانت 35,9 في الألف، انخفضت إلى 24,8 في الألف. وفي بولندا، انخفضت النسبة من 28,6 في الألف عام 1900 إلى 12,3 في الألف عام 1925 في وارسو، و إلى 11,6 في الألف في لودز عام 1925. أما يهود المجر، فقد انخفضت النسبة بينهم من 33,91 في الألف في بداية القرن الحالي إلى 10,5 في الألف، أي أنها انخفضت نحو 23,4 في الألف. وكانت نسبة المواليد في بروسيا (ألمانيا) 5,2 في الألف عام 1935 و2 في الألف في لندن عام 1932. وقد حدا هذا الوضع بالكتاب اليهود إلى التحذير من أن يهود أوربا قد يختفون تماماً لأن معدلات المواليد لا تعوض الوفيات. وعلى مستوى العالم، كانت النسبة 35,5 في الألف في الفترة 1822ـ 1840، انخفضت إلى 19,7 في الألف في الفترة 1898ـ 1902، ثم إلى 9,1 في الألف عام 1929. كما أنها انخفضت إلى ما دون ذلك لمدة عشرين عام (1929ـ1949).

وكان معدل نسبة المواليد في الفترة 1906ـ1910 هو 32 في الألف، ونسبة الوفيات 15 في الألف، والزيادة الطبيعية هي 17 في الألف. ثم انخفضت إلى نحو النصف في نحو خمسة وعشرين عاماً، ففي الفترة 1926ـ 1930 كانت نسبة المواليد هي 21 في الألف والوفيات 12 في الألف، والزيادة الطبيعية 9 في الألف (انخفضت إلى 8 في الألف عام 1932). ولا توجد إحصاءات عن الفترة 1935ـ 1949 لأنها كانت فترة الحرب، كما أنها أصبحت موضوعاً يحجم كثير من الباحثين عن الخوض فيه، وإن كان يمكن القول: إن منحني الانخفاض كان آخذاً في الهبوط لأن الأسباب التي كانت تؤدي إليه لم تختلف، وإنما ازدادت حدة.

2ـ عوامل تؤدي إلى الاختفاء:

(أ)ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر كان يتم تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية، وهو أمر جديد كل الجدة، إذ كانوا يتمتعون بالإعفاء من الخدمة العسكرية قبل ذلك، كما سقط منهم ضحايا بأعداد كبيرة في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية. لكن هذا العنصر لا يؤدي إلى إنقاص عدد اليهود مباشرة عن طريق سقوطهم قتلى وحسب وإنما بشكل غير مباشر أيضاً عن طريق معدل العزوف عن الإنجاب. كما أن العناصر القادرة على القتال هي عادة من الذكور في سن الخصوبة.

(ب) تنصر أعداد كبيرة من اليهود، وهو شكل من الأشكال الحادة للاندماج. وقد تزايد المعدل عشية الحرب العالمية الثانية لأسباب عملية منها الهرب من بطش النازي. كما حصل كثير من اليهود على

شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتيسر لهم دخول أمريكا اللاتينية. وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر.

(جـ) ينطبق الشيء نفسه على مئات الألوف من الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هرباً من النازي. فكثير منهم لم يفصح عن انتمائه اليهودي، خصوصاً وأن الاتحاد السوفيتي (سابقاً) كان يترك لكل شخص أن يحدد انتماءه، فلو كان الشخص يهودياً وعرف نفسه بأنه (روسي) أو (أوكراني) فإن الأمر كان متروكاً له. ومع تآكل الهوية اليهودية، لم يعد هناك دافع قوى لدى كثير من اليهود للإفصاح عن هويتهم.

3ـ ظروف الحرب العالمية الثانية:

لابد أن نضيف إلى كل ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية التي صعدت من كل العناصر السابقة وزادتها حدة، ولابد أن نأخذ في الاعتبار انتشار الأوبئة وسوء التغذية في نفس الفترة. كما ينبغي الإشارة إلى بعض طرق الإبادة البطيئة غير أفران الغاز، مثل أعمال السخرة وعزل اليهود في الجيتو بمناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف، وهو ما كان يعني المزيد من الجوع والمرض. ويقال: إن نحو ثلث سكان جيتو وارسو قضوا نحبهم بهذه الطريقة، وإنه كان من المتوقع لهم جميعاً أن يبادوا تماماً خلال عدة أعوام. (وهذا العنصر هو ولا شك عملية إبادة، إذ لا يهم أن يموت الضحية بأفران الغاز أو عن طريق التجويع. ولكننا نذكر هذا العنصر أيضاً حتى تكتمل الصورة لدينا). كما هلك الآلاف بسبب حالة الحرب ابتداءاً من عدم توفر الرعاية الصحية، وانتهاءً بالغارات على المدن، مروراً بأحكام الإعدام التي كان النازيون يصدرونها على اليهود وغيرهم.

وإذا أخذنا في الاعتبار كل هذه العناصر يصبح من الصعب أن نعزو اختفاء ستة الملايين يهودي (أو حتى أربعة الملايين حسب بعض الإحصاءات) إلى أفران الغاز وحدها أو عمليات الإبادة كتصفية جسدية متعمدة فحسب.

نعم! قد يكون عدد اليهود الذين (اختفوا) هو ستة ملايين، ولكن هل (حرق) جميعهم في أفران الغاز النازية؟ هل الأرقام حقائق صلبة فعلاً؟!

الفصل الرابع

الهجرة والاستيطان

عادة ما يتم النظر إلى تعداد أعضاء الجماعات اليهودية حسب توزيعهم الجغرافي "في جميع أنحاء العالم". لكن إذا نظرنا إلى توزيعهم من منظور تاريخي حضاري فستظهر صورة مختلفة تماماً. ولننظر الآن إلى أكبر تسع جماعات يهودية في العالم (حسب إحصاءات أوائل التسعينيات، ورغم أن الأعداد قد تغيرت بعد ذلك إلا أنها لم تتغير بشكل جوهري، كما أن النمط العام لم يتغير).

الدولة	عدد أعضاء الجماعة اليهودية	نسبتهم إلى يهود العالم
الولايات المتحدة	5,515,000	%43,1
إسرائيل	3,717,000	%29,0
الاتحاد السوفيتي (سابقاً)	1,370,000	%10,7
فرنسا	530,000	%4,1
بريطانيا العظمي	320,000	%2,5
كندا	310,000	%2,4
الأرجنتين	218,000	%1,7
جنوب أفريقيا	114,000	%0,9
البرازيل	100,000	%0,8

نلاحظ في هذا الجدول أن 95,1% من يهود العالم يعيشون في تسعة مراكز رئيسية، بما في ذلك الدولة الصهيونية، وأن 82,4% منهم يعيشون في ثلاث دول فقط ونلاحظ أيضاً أن البلاد التي تضم جماعات يهودية تنتمي إلى ما يمكن تسميته التشكيل العرقي الأبيض. ففي الأرجنتين، حيث أعلى نسبة من البيض في أمريكا اللاتينية، توجد أيضاً أعلى نسبة من اليهود. أما في البرازيل فتكاد تكون الاستثناء الوحيد من القاعدة، ومع هذا فإننا نجد أن نسبة السكان من أصل أبيض عالية في المدن، حيث يتركز اليهود. ولا يوجد اليهود في الاتحاد السوفيتي السابق إلا بنسبة ضئيلة في الجمهوريات الآسيوية؛ إذ إنهم يتركزون أساساً في روسيا وأوكرانيا.

ويمكن تقسيم البلاد التي تعيش الأغلبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية في كنفها إلى قسمين أساسيين لا ثالث لهما: 22% في أوربا والاتحاد السوفيتي سابقاً، أي داخل التشكيل الحضاري الغربي، و77% داخل التشكيل الاستيطاني الغربي (43,1% في الولايات المتحدة، و5,8% في دول استيطانية أخرى مثل كندا والأرجنتين وجنوب إفريقيا والبرازيل، و29% في إسرائيل).

الجماعة الوظيفية

لتفسير هذه الظاهرة (أي وجود غالبية أعضاء الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضاري والاستيطاني الغربي) يمكننا استخدام مفهوم الجماعة الوظيفية (أو جماعة التعاقدين الهامشيين الغرباء)، وهم جماعة من البشر تستجلبهم المجتمعات التقليدية من خارج المجتمع (وأحياناً تجندهم من داخله).

لتوكل إليهم وظائف لا يمكن لأعضاء المجتمع ذاته القيام بها، إما لأنها وظائف مشينة (جمع النفايات) وإما لأنها متميزة وتتطلب خبرة معينة غير متوفرة عند أعضاء المجتمع المضيف (الطب ــ الترجمة)، وإما لأنها تتطلب معرفة بأدوات خاصة، أو امتلاك رأس مال، أو المقدرة على ارتياد مناطق نشاط جديدة (صناعات جديدة ــ تجارة).

ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بأنهم مجرد أداة في يد الحاكم، وعلاقتهم به ليست علاقة حب أو كره وإنما علاقة تعاقد، وهو يقوم بعزلهم حتى يظلوا منبوذين من المجتمع ومهددين من جماهيره ليبقوا أداة طيعة في يده.

وأعضاء الجماعة الوظيفية لا يدينون بالولاء لأحد (فهم يخافون أعداءهم ويدخلون في علاقة تعاقدية مع أصدقائهم أو أولياء نعمتهم)، لكنهم يحتفظون بعلاقة ولاء قوية لجماعتهم الوظيفية أو لوطنهم الأصلي، ويتسمون بالحركية الفائقة بسبب عدم ارتباطهم بأحد. ومن أهم الجماعات الوظيفية: الجماعات الوظيفية المالية (المرابون والتجار)، والجماعات الوظيفية القتالية (المماليك والساموراى)، والجماعات الوظيفية الاستيطانية (الصينيون في ماليزيا والهنود والبيض في جنوب إفريقيا). ويمكن للجماعة الوظيفية الواحدة أن تضطلع بوظيفتين أو ثلاث وظائف في وقت واحد: مالية واستيطانية وقتالية (اليهود في الدول الهيلينية في مصر، حيث كانوا يوطنون كجماعة استيطانية تقوم بجباية الأموال وحماية الثغور لمصلحة السلطة الهيلينية الحاكمة).

ولا يمكن أن نفهم حركة الجماعات اليهودية في العصر الحديث، وسر تركزهم في بقع معينة دون غيرها وفي تشكيل حضاري دون غيره، إلا من خلال مفهوم الجماعة الوظيفية هذا. إذ يبدو أنه منذ بداية التاريخ، اضطلع عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية (وخصوصاً في العالم الغربي) بدور الجماعة الوظيفية، فكانوا جماعة استيطانية قتالية أو استيطانية مالية. ولعل هذا يعود إلى ضعف الدولة العبرانية وتخلفها التكنولوجي و إلى ضعف موارد فلسطين بصورة عامة، وصغر حجمها، الأمر الذي جعلها قاصرة عن استيعاب المصادر البشرية. ولذا، كان لابد من تصديرها والتخلص منها لزيادة موارد الدولة (باعتبار أن المادة البشرية سلعة تصدر) وللقضاء على مصادر القلق الاجتماعي. وقد كانت أول دياسبورا عبرانية هي الحامية العبرانية في جزيرة إلفنتاين قرب أسوان (في أوائل القرن السادس ق.م.) حين قام ملوك الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية بتوطين بعض الجنود العبرانيين في هذه الجزيرة لحماية حدود مصر الجنوبية. وكان الهدف من التهجير الآشوري ــ البابلي، في وجه من وجوهه، الاستفادة من الجماعات الموالية لها في أرجاء الإمبراطورية، وكان من بينها بعض الجماعات العبرانية. وقد حولت حامية إلفنتاين ولاءها إلى السلطة الفارسية بعد غزوها مصر. وقد تعمق هذا النمط تماماً مع الدول الهيلينية (السلوقية في سوريا والبطليمية في مصر)، ثم وصل إلى ذروته في القرن السادس عشر في بولندا/ أوكرانيا، حيث كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون جماعة استيطانية وتجارية وقتالية في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا، فكان الوكلاء اليهود يستأجرون عوائد ضياع النبلاء البولنديين (الشلاختا) في أوكرانيا ويديرونها لحساب هؤلاء النبلاء. وقد شيد النبلاء لهم ولأسرهم مدنا صغيرة تسمي "الشتتل"، يعيشون فيها تحت حماية القوة العسكرية البولندية ليتفرغوا لعملية استغلال الأقنان الأوكرانيين واعتصار فائض القيمة منهم. وكان على رجال الجماعة اليهودية الاستيطانية أن يتدربوا على حمل السلاح، بل كانوا أيضاً يتعبدون في معابد تأخذ شكل القلاع المسلحة وفي صراع الدولة البولندية الغازية مع الفلاحين الأوكرانيين، كان

اليهود هم علامة الهيمنة البولندية. ولذا، كان أحد المطالب الرئيسية للحركة الشعبية الوكرانية عدم السماح لليهود بالاستيطاني في أوكرانيا (تماماً مثلما كانت حركة المقاومة الفلسطينية تطلب وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين)، بينما كانت الدولة البولندية الغازية تصر على ضرورة الاعتراف بحق اليهود في الاستيطان (مثل إصرار العالم الغربي على فتح أبواب فلسطين المحتلة للهجرة اليهودية) ويجب أن نتذكر أن يهود بولندا/ أوكرانيا كانوا يشكلون أكبر جماعة يهودية في العالم في القرن السابع عشر، وأنهم أخذوا يزدادون عدداً، إلى أن أصبح معظم يهود العالم من نسلهم. وهذا يعني أن الاستيطان جزء مهم للغاية من التجربة التاريخية للجماعات اليهودية في الغرب، وأنهم دخلوا العصر الحديث وعندهم قابلية عالية للاشتراك في العمليات الاستيطانية.

الهجرة الاستيطانية

في هذا الإطار، يمكننا أن نفهم نمط هجرة أعضاء الجماعات اليهودية، فهي حركة تنقل تتم دائماً داخل إطار حركة الإمبراطوريات الكبرى التي تيسر لهم هذا التنقل، وتتيح لهم فرص الحراك، وتوظفهم كجماعة وظيفية استيطانية أو مالية. وإذا كان التهجير البابلي قد تم قسراً، فإن حركة الهجرة العبرانية (اليهودية)، التي تعاظمت بالتدريج حتى وصلت إلى ذروتها مع نهاية الألف الأولي قبل الميلاد (حين أصبح عدد اليهود خارج فلسطين أكثر من ضعف عددهم داخلها)، كانت هجرة تلقائية بحثاً عن الفرص الاقتصادية، وتمت في إطار الإمبراطوريات الهيلينية والرومانية. وهجرة يهود شرق أوربا التي توجهت بأعداد هائلة إلى الولايات المتحدة وكندا، وغيرها من الدول الاستيطانية، حتى انتقلت الكتلة البشرية اليهودية من أوربا (روسيا/ بولندا) إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) هي الأخرى هجرة تمت داخل إطار إمبراطوري، إذ إنها تمت داخل التشكيل الاستعماري الغربي وتجربته الاستيطانية في أنحاء العالم.

وقد اشترك أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من الأنشطة المرتبطة بالاستيطان الغربي، مثل أنشطة شركتي الهند الشرقية والغربية الهولندية، وغيرهما من الشركات، وتجارة العبيد. كما اشتركت أعداد من أعضاء أعداد من أعضاء الجماعات اليهودية في عملية الاستيطان ذاتها. وفي بداية الأمر كان أعضاء الجماعة جزءاً من النشاط الاستيطاني الهولندي، فاستوطنوا ابتداءً من منتصف القرن السابع عشر جزر الهند الغربية (مثل ترينيداد وسورينام والمارتينيك وجمايكا وجزر الباهاما). لكن سورينام كانت أهم التجارب الاستيطانية الأولي. وقد بدأ وصول اليهود إليها من هولندا سنة 1639، ثم من إنجلترا سنة 1652، فكفلت لهم جميع الحريات والمزايا. ومنح اليهود الجنسية الإنجليزية. وبعد أن ضم الهولنديون سورينام مرة أخرى سنة 1667، حاول بعض اليهود الرحيل مع الرعايا البريطانيين، لكن الهولنديين أرغموهم على البقاء فيها بوصفهم جماعة استيطانية نافعة. وقد تركز اليهود فيما يسمى يودين سافانا، أي سافانا اليهود، وأسسوا مستوطنة يهودية في برزدينتس أيلاند سنة 1670، وكانت المستوطنة تلك تتمتع بما يشبه الاستقلال الكامل (ومن ثم فهي أول دولة يهودية استيطانية). وكان اقتصاد المستعمرة يعتمد على العبيد الذين كانوا يشقون الطرق ويزيلون الغابات والأعشاب، فأقاموا مدينة جديدة محاطة بالطرق. وقد بلغ عدد سكان المستوطنة 10 آلاف نسمة سنة 1719، وكانت أغلبيتهم من العبيد. وكان العبيد المستجلبون من إفريقيا يهربون ويلجأون إلى الأحراج ويختلطون بسكان الجزيرة الأصليين، فيضطر سكان المستوطنة إلى استجلاب المزيد من العبيد من إفريقيا الذين

كانوا يهربون بدورهم وينضمون إلى السكان الأصليين. ثم بدأت جماعات العبيد الأفارقة والسكان الأصليين تشن هجمات على المستوطنة في فترة 1692ــ 1774. وكون المستوطنون البيض مليشيات عسكرية وشددوا الحملات ضد الثوار (تماماً كما تفعل الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين)، لكن الإرهاق الناتج من الحرب وانتشار الأمراض أديا إلى انتصار السود والسكان الأصليين على الدويلة اليهودية الاستيطانية.

وقد استوطن اليهود أيضاً في معظم بلاد أمريكا اللاتينية، وخصوصاً في الأرجنتين التي وطن المليونير هيرش فيها آلاف اليهود، والتي كانت تعد أهم تجربة استيطانية زراعية، باستثناء تجربة الدولة الصهيونية في العصر الحديث.

ويلاحظ أن هذه الأنشطة الاستيطانية كانت تدور إما في إطار الاستعمار الهولندي أو في إطار الاستعمار الإسباني ــ البرتغالي، والمادة البشرية الأساسية هنا هي يهود السفارد (المارانو). لكن مصدر المادة الاستيطانية الحقيقة كان يهود اليديشية (الأشكناز) من شرق أوربا، الذي كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من يهود العالم مع نهاية القرن التاسع عشر. وكان النشاط الاستيطاني الأكبر ليهود اليديشية داخل التشكيل الاستيطاني الإنجلو ساكسوني. فاتجه ملايين اليهود إلى جنوب إفريقيا وكندا ونيوزيلندا، وأستراليا وهونج كونج، لكن أغلبيتهم (85%) اتجهت إلى الولايات المتحدة ــ أهم التجارب الاستيطانية ــ ثم إلى إسرائيل التي تلي الولايات المتحدة في الأهمية.

الاستيطان وواقع اليهود المعاصر

إن الإطار التفسيري السابق يجعلنا نرى مدى ارتباط الجماعات اليهودية في العالم (العالم الغربي بالذات) بالتشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي، ونضع يدنا على الحقائق الأساسية التالية في واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم:

1ــ الدياسبورا اليهودية (أي انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في أرجاء العالم). ليس انتشاراً عشوائياً وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعماري الغربي، وخصوصاً في جانبه الاستيطاني.

فهجرة أعضاء الجماعات اليهودية لا تحددها حركيات ما يسمى "التاريخ اليهودي" أو ما يسمى "الطبيعة اليهودية"، وإنما تحددها حركيات الاستعمار الغربي، ولا سيما الاستعمار الأنجلو ساكوسني.

2ــ لا تشكل إسرائيل استثناء لهذه القاعدة، فهي جزء من نمط ومن حركية غربية هي الإمبريالية الغربية التي جعلت العالم مسرحاً لنشاطها، سواء في أستراليا أو أمريكا اللاتينية أو جنوب إفريقيا أو فلسطين. فالمشروع الصهيوني هو جزء لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الاستيطاني في الغرب، وما كان يمكنه أن يتحقق من دون إمكانات الإمبراطورية الغربية ومن دون طموحاتها أو آلياتها.

واستيطان اليهود في فلسطين هو نقل لفائض بشري غربي إلى بقعة في آسيا أو إفريقيا، حيث يتم تحويل هذا الفائض وهذه الجماعة الوظيفية التي فقدت وظيفتها إلى دولة وظيفية استيطانية تقوم على خدمة مصالح الغرب لقاء أن يقوم هو على حمايتها. فإسرائيل من هذا المنظور هي إعادة إنتاج لنمط قديم. ووعد بلفور، ثم دعم حكومة الانتداب للمستوطن الصهيوني، ثم دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، وتوقيع الاتفاق الإستراتيجي معها. كل هذا يبين أن الدولة الصهيونية امتداد لارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالاستعمار الإستبطانى الأنجلو ساكوسوني.

3ــ بل يمكن القول إن يهود الشرق والعالم الإسلامي قد تم تحويلهم إلى مادة استيطانية تابعة للتشكيل الاستيطاني الغربي من خلال مدارس الأليانس، والدعاية الصهيونية، وهجرة أعداد ضخمة من اليهود الأشكناز إلى العالم العربي، إذ إن هذه العمليات كلها أفقدتهم مختلف هوياتهم المحلية وأحلت محلها هوية يهودية عالمية اسماً، لكنها استيطانية فعلاً، جوهرها فك الصلة بين اليهودي ووطنه ومن ثم استيعابه في المنظومة الاستيطانية. وفعلاً، حينما أعلن إنشاء إسرائيل، هاجرت الأغلبية الساحقة من يهود البلاد العربية إلى إسرائيل.

ويمكن القول بشيء من التبسيط غير المخل إن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور في الوقت الحالي حول مركزين أساسيين هما: شرق أوربا (روسيا/ بولندا) كقوة طاردة وكمصدر للمادة البشرية، والولايات المتحدة كقوة جاذبة أساسية، وباعتبارها التجربة الاستيطانية الكبرى. وهناك إلى جانب هذا وذاك مراكز طرد وجذب ثانوية: فأما مصادر الطرد الثانوية فهي باقي بلاد شرق أوربا وأمريكا اللاتينية وجنوب إفريقيا وبقايا يهود الشرق والعالم الإسلامي. وأما مناطق الجذب الثانوية فهناك كندا وأستراليا ونيوزيلندا وبعض بلاد أوربا، وغيرها.

وتمثل إسرائيل الآن نقطة مبهمة، فهي مصدر طرد، حيث يبلغ عدد النازحين منها بين 700 ألف ومليون، كما أنها مصدر جذب ليهود البلاد العربية والشرق، حيث إنها تحقق حراكاً اجتماعيا لهم. وهي تمثل أيضاً محطة انتقال لهؤلاء اليهود الذين لا يمكنهم الوصول مباشرة إلى الولايات المتحدة أو لأولئك الذين لا توجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها.

وإذا استبعدنا سكان المستوطن الصهيوني، نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون حالياً وعلى نحو أساسي، في الولايات المتحدة وبضعة بلاد أخرى ناطقة بالإنجليزية (كندا وإنجلترا وأستراليا ونيوزلندا وجنوب إفريقيا). ولذا، يمكننا القول إن اللغة التي يتحدث أعضاء الجماعات اليهودية بها هي الإنجليزية، لا العبرية أو اليديشية. ويلاحظ أن الجماعات اليهودية في أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي السابق وأوربا أخذة في الذوبان، وأن عدد أعضائها في أمريكا اللاتينية آخذ في التناقص السريع ومن خلال الحركيات التي تؤدي إلى "موت الشعب اليهودي".

الدياسبورا الدائمة:

يدعي الصهاينة أن اليهود شعب قد طرد من وطنه وشتت في أرجاء الأرض بعد ان هدم تيتوس الهيكل. وبالفعل نجد أن عدد يهود العالم داخل فلسطين بعد هدم الهيكل أقل بكثير من عددهم خارجها، فنؤمن بشتات اليهود وأنهم نفوا قسرا من ديارهم، وأنهم يودون العودة. وأنهم هائمون على وجوههم في كل بقاع الأرض بسبب غياب الوطن القومي.

ولكن مرة أخرى، لو دققنا النظر، وتناولنا الأرقام بطريقة مختلفة فإن الصورة تختلف تماماً. فمن المعروف أن عدد اليهود قد وصل إلى ما بين خمسة وثمانية ملايين يهودي في القرن الأول قبل الميلاد. ويجمع المؤرخون كافة على أن عدد اليهود في فلسطين كان لا يشكل سوى ثلث عدد يهود العالم، وذلك قبل أن يهدم تيتوس الهيكل، أي أن الفكرة القائلة بأن اليهود مرتبطون ارتباطاً أزليا بصهيون (فلسطين) وأنهم لا يتركونها إلا قسراً هي فكرة تتنافي مع واقع التاريخ. فالدياسبورا، أو الشتات اليهودي، مسألة طوعية، وليست مرتبطة بعملية إكراه خارجية، وحالة الدياسبورا حالة دائمة بغض النظر عما كان يحدث في فلسطين. بل إنه حينما يتجه بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى

فلسطين للاستقرار فيها، فإن ذلك ينبع من حركيات لا علاقة لها بصهيون. وعلى كل، هاهي الدولة الصهيونية قد فتحت بواباتها داعية يهود العالم إلى المجيء إليها، فهي تعاني أزمة سكانية، غير أن يهود العالم لا يأتون إلا قسراً أو من خلال الرشوة السخية (كما حدث مع اليهود السوفيت)، إذ أن الأغلبية الساحقة تفضل البقاء في، أو التوجه إلى، الولايات المتحدة (بابل الحديثة)، التي يشار إليها باليديشية بأنها "جولدن مدينا"، أي البلد الذهبي ــ أرض الميعاد الاستهلاكية التي تفوق في جاذبيتها أرض الميعاد الصهيونية.

الانعزالية اليهودية

ويدعي الصهاينة أن اليهود يعيشون في حالة عزلة دائمة ثم يشيرون إلى بعض الحقائق الصلبة للتدليل على ذلك. ولكن قراءة الواقع والأرقام بطريقة مختلفة يبين كذب ما يقولون. فيهود بابل، على سبيل المثال، اندمجوا في محيطهم الحضاري وانصهر يهود آشور في محيطهم. ويمكن أن نشير إلى تأغرق يهود الإسكندرية ونسيانهم لغتهم في الدولة البطلمية، ولذا كان لابد من ترجمة العهد القديم إلى اليونانية. وإذا كان عدد اليهود قد وصل بالفعل في القرن الأول الميلاد إلى ما بين 5 و8 مليون، كان من المفروض أن يصل عددهم إلى خمسين أو ربما مائة مليون في القرن السادس الميلادي مع بدايات العصور الوسطي في الغرب والعصر الإسلامي في الشرق. لكن يلاحظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودي في ذلك التاريخ كان يتراوح بين مليون واحد ومليونين (تركز أغلبهم في العالم الإسلامي). وقد ظل عددهم دون تغيير ملحوظ حتى القرن الخامس عشر الميلادي. ولنا أن نلاحظ انخفاض عدد اليهود إلى الخمس، على الرغم من عدم حدوث هجمات أو عمليات إبادة ضخمة ضدهم أو انتشار أوبئة. ولذا لا يمكن تفسير هذا الانخفاض غلا بأن عملية الاندماج والانصهار والذوبان كانت مستمرة على قدم وساق، أي أن فكرة الانعزالية اليهودية ومقدرة اليهود على مقاومة الاندماج هما مجرد أسطورة تتنافي مع الحقائق التاريخية، فأعضاء الجماعات اليهودية ــ شأنهم شأن جميع الأقليات والجماعات الأخرى ــ خاضعون لحركيات إنسانية عامة يؤدي بعضها إلى العزل والعزلة، ويؤدي بعضها الآخر إلى الاندماج والانصهار.

طفرتان سكانيتان

من الأساطير الأخرى التي يروج لها الصهاينة أن ثمة نزوع أزلي لدى "اليهود" نحو العودة إلى فلسطين، فالإنسان اليهودي ــ حسب هذا التصور ــ يحس بالاغتراب إن ابتعد عن وطن أسلافه. ومثل هذا الادعاء يخفي عنا الأسباب السياسية والاجتماعية الحقيقة التي أدت إلى انتشار الفكر الصهيوني والعداء لليهود في نفس الوقت. والربط بين الاتجاهين قد يبدو أن فيه كثيرا من التناقض، ولكننا لو أمعنا النظر لأكتشفنا أن الصهيونية ليست حركة دفاع عن اليهودية ــ وإنما هي محاولة لتخليص أوربا من اليهود. ولفهم هذا حق الفهم يجب أن ننظر للبعد اليموجرافي لظهور الصهيونية.

1ــ الطفرة السكانية الأولي:

تقول التقديرات التخمينية: إن تعداد العبرانيين في عام 1000ق.م بلغ نحو 1,80,000 ولكن هناك من يذهب إلى أن هذا العدد مبالغ فيه. ففلسطين بلد صغير، مواردها فقيرة، ومستوي تطور سكانها التكنولوجي آنذاك كان منخفضاً، فكيف كان من الممكن أن تمد مثل هذا العدد بأسباب الحياة (مع العلم

بأن عدد سكان مصر آنذاك بكل إمكاناتها كان ستة ملايين)؟ لعل فقر فلسطين آنذاك ووقوعها بين الإمبراطوريات العظمي في الشرق الأدنى القديم نقطة عبور لكثير من جيوشها ونقطة ارتكاز لها. وقد أدي هذا إلى هجرة أعداد كبيرة من العبرانيين، ليعملوا كجنود مرتزقة في البلاد المجاورة، أو كتجار في حوض البحر المتوسط، أي أن هذا هو بداية ما يسميه الصهاينة "الشتات" أو "الدياسبورا".

مهما كان الأمر، تناقصت أعداد العبرانيين حتى بلغ نحو مليون ومائة ألف نسمة حوالي عام 720 ق.م ثم انخفض هذا العدد مع التهجير الآشوري والبابلي (721 ق.م على التوالي) فلم يتجاوز عدد العبرانيين 150 ألف. وهذا الرقم الأخير يلقي بظلال كثيفة من الشك على الأرقام المليونية السابقة، لأن الآشوريين والبابليين كانوا يقومون بتهجير أعضاء النخب الحاكمة للأقوام التي يهزمونها وحسب، مما يعني أنهم كانوا يتركون أغلبيتهم في مواطنهم. وقد انصهر معظم المهجرين العبرانيين في البلاد التي هجروا إليها (ومن هنا الحديث عن "الأسباط العشرة المفقودة" والتي يجب أن تصبح في واقع الأمر "الأسباط العشرة المنصهرة") كما ازداد اندماج من تبقي من العبرانيين في فلسطين والشعوب المحيطة بها.

ولكن مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد حدثت طفرة سكانية إذ بلغ عدد اليهود آنذاك ــ حسب بعض التقديرات التخمينية ــ كما أسلفنا ــ ما بين خمسة وثمانية ملايين، بينما تذهب بعض التقديرات التخمينية الأخرى إلى أن عددهم لم يتجاوز خمسة ملايين. وتعود هذه الطفرة لعدة أسباب من بينها قيام الدولة الحشمونية (اليهودية) بتهويد بعض القبائل والشعوب المجاورة التي وقعت تحت سيطرتها، كما أن الفريسيين قاموا بحركة تبشيرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد طوروا مفهوماً لليهودية جعل منها ديانة عالمية منفتحة (على عكس اليهودية الحاخامية أو التلمودية التي جاءت بعدها). كما أن ما يسمى الأمن الروماني "باكس رومانا" الذي ساد المناطق التي كان يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية قد وفر لهم الأمن والطمأنينة، الأمر الذي ساعدهم على التكاثر. واشتغال اليهود بالتجارة كان يعني ابتعادهم عن المهام القتالية مما يعني أنه لم يسقط من بينهم قتلي. ويقال إنه مع سقوط قرطاجة انضمت الدياسبورا الفينيقية والقرطاجية إلى أعضاء الجماعات العبرانية اليهودية باعتبارهم جميعاً ساميين ينتمون إلى نفس التشكيل الحضاري ويعملون بنفس المهنة (التجارة). ولعلهم فعلوا ذلك حتى يستفيدوا من شبكة التجارة اليهودية.

2ــ الطفرة السكانية الثانية:

وقد بدأت الطفرة السكانية الثانية والأخيرة بين اليهود بعد مؤتمر فيينا عام 1815 حتى بلغ عددهم عشية الحرب العالمية الثانية 16,724,000 كما هو مبين في الجدول التالي:

السنة	العدد الإجمالي
1800	2,500,000
1840	4,500,000
1860	6,500,000
19000	10,500,000
1930	15,900,000
1939	16,500,000

وتعود هذه الطفرة إلى عدة أسباب من بينها تحسن الأحوال الصحية في العالم الغربي نتيجة الثورة الصناعية، خاصة بين اليهود نظراً لأن مستواهم المعيشي كان أعلى من مستوى غالبية السكان. نضيف إلى هذا أن المستوى الثقافي العام بين أعضاء الجماعات اليهودية كان أعلى من مستوى الفلاحين السلاف. وقد انعكس هذا بطبيعة الحال على نوعية الطعام الذي يستهلكونه وأدى إلى اختفاء أو تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية. كما أن الرقابة على الطعام بين الجماعات كانت قوية نظراً لتطبيق قوانين الطعام. وكانت الأسرة اليهودية تتمتع بدرجة عالية من التماسك، الأمر الذي يشجع على الإنجاب، ويضمن الرعاية الصحية للأطفال مما يخفض نسبة الوفيات بينهم.

ويقال إن زواج اليهود في سن مبكرة كان من أهم العناصر التي ساهمت في تزايد عددهم. وأخيراً لم تشهد الأماكن التي تركزت فيها الجماعات اليهودية في الفترة بين عامي 1800ــ 1984 أي حروب، كما أن كثيراً من الدول كانت لا تجند أعضاء الجماعات اليهودية. وحسب الجدول السابق نجد أن عددهم زاد ستة أضعاف في غضون قرن ونصف. وكان معظمهم يتركزون في شرق أوربا، خاصة بولندا/ روسيا. وقد تزامنت هذه الطفرة السكانية مع تعثر التحديث في روسيا القيصرية، مما جعل الاقتصاد الروسي غير قادر على استيعاب الأعداد المتزايدة من أعضاء الجماعات اليهودية، مما أدي إلى ظهور جو معاد لليهود داخل روسيا وملائم لظهور الصهيونية، التي تطالب بتخليص أوربا من اليهود، وبدأت جحافل اليهود تهاجر إلى بلاد أوربا الوسطي والغربية.

وقد أدي تزايد عدد اليهود إلى تفاقم المسألة اليهودية في البلاد التي كانوا يهاجرون إليها (باستثناء البلاد الاستيطانية مثل الولايات المتحدة وكندا وأمريكا اللاتينية نظراً لحاجتها لمادة استيطانية). ولعل حالة النمسا وإنجلترا (باعتبارهما مهد الفكرة الصهيونية ووعد بلفور على التوالي) يصلحان كمثالين على ما نقول. في عام 1846 كان عدد يهود فيينا (التي كان يقطن فيها هرتزل مؤسس الصهيونية) 3,739 يهودياً فقط لا غر، وصل عددهم إلى 15 ألف عام 1854، وبلغ 201,513 عام 1923. ولا شك في أن وجود مثل هذه الكتلة البشرية الغريبة وبهذا الشكل المفاجئ جعل الكثير من أعضاء الأغلبية يتصورون ــ إن صدقاً أو كذباً ــ أن هذه الكتلة هي مصدر البطالة وكثير من الأمراض الاجتماعية وأنها تهدد الأمن الاجتماعي، مما ولد موقفاً معادياً لليهود ورغبة في التخلص منهم باعتبارهم فائضاً بشرياً غير منتج وغير منتم (وهذا هو ذاته الموقف الصهيوني). وفي هذا المناخ ظهر هرتزل، الصحفي النمساوي المندمج تماماً في مجتمعه، ومؤسس الفكر الصهيوني. وقد تبني كثير من اليهود المندمجين في بلاد وسط أوربا وغربها هذا الفكر، باعتباره دفاعاً عن أنفسهم وعن مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية التي كان يهددها هؤلاء المهاجرون من يهود اليديشية، والذين كانوا يحملون معهم عقلية جيتوية وشعور عميق بعدم الاطمئنان دون أن تكون لديهم الخبرات اللازمة للاندماج في مجتمعاتهم الجديدة.

إنجلترا والمسألة الصهيونية

ويمكنا الآن أن نتناول الوضع في إنجلترا. كان يوجد في إنجلترا عام 1845 حوالي 25 ألف يهودي فقط لا غير، وصل عددهم 242 ألف عام 1910، وكان عدد كبير من المهاجرين تجاراً وحرفيين صغاراً، وأدي تواجدهم بهذه الأعداد الضخمة إلى ازدياد البطالة وازدحام المدن وانتشار الجريمة. ولذا ظهرت توترات شديدة لا بينهم وبين المجتمع الإنجليزي وحسب، وإنما بينهم كوافدين (من الأشكناز)

وبين اليهود الأصليين (وكان معظمهم من السفارد) وكان هذا الفريق الأخير يشعر بأن الوافدين يهددون ما حققوه من مكاسب اجتماعية وطبقية.

ويلاحظ أن الاشتراكيين الإنجليز المعارضين للإمبريالية قد ذهبوا إلى أن مجموعة صغيرة من الممولين الدوليين "ألمان في أصلهم ويهود في عنصرهم" حققوا نفوذا قويا في جوهانسبرج (في جنوب أفريقيا). وقد وصفوهم بأنهم "الحثالة الحقيقية" لأوربا، يسيطرون على حقول الذهب ويحتكرون صناعة الديناميت وتجارة الكحول السرية. كما يتحكمون مع سيسل رودس في الصحافة. ويتلاعبون بسوق الرقيق، ويديرون الأعمال التجارية الأساسية في كل من جوهانسبرج وبريتوريا. كما يلاحظ أيضاً أن أعداداً كبيرة أيضاً من يهود إنجلترا، خصوصاً يهود اليديشية، انخرطوا في صفوف الحركات اليسارية والعمالية والعدمية. وأدي إلى ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بكل من أقصى اليمين والرجعية، وأقصى اليسار والثورية، في وقت واحد.

في هذا الجو، شكلت لجنة خاصة لمناقشة هجرة يهود شرق أوربا وقدمت حكومة بلفور، الذي يشغل منصب رئيس الوزراء آنذاك، مشروع قانون عام 1902 يسمى "قانون الغرباء" الذي ووفق عليه عام 1905 للحد من الهجرة. وفي هذا الإطار، طرحت الفكرة الصهيونية، فعارضها اليهود الإنجليز وأيدها يهود اليديشية. وزار هرتزل إنجلترا لأول مرة عام 1895 وألقي خطبة في حي إيست إند عن موضوع الهجرة، وكانت هذه أول مواجهة حقيقية بينه وبين يهود اليديشية. ثم عقد المؤتمر الصهيوني الرابع (1900) في لندن. وحيث إن يهود إنجلترا الأصليين كانوا من كبار معارضي المشروع الصهيوني، توجه هرتزل أساساً إلى يهود اليديشية، كما وضع نصب عينيه الوصول إلى السلطات الحاكمة مباشرة لعرض المشروع الصهيوني كرقعة تلتقي فيها المصالح العنصرية والاستعمارية بالرؤية الصهيونية. وفي عام 1902، نجح أحد أصدقاء هرتزل في دعوته للمثول أمام اللجنة الملكية، حيث قدم حلاً صهيونياً مفاده تحويل الهجرة من إنجلترا إلى أية بقعة أخرى خارج أوربا. وانطلاقا من هذا، عرض مشروع شرق أفريقيا، ثم صدر وعد بلفور، أهم حدث في تاريخ الصهيونية، الذي جاء انتصاراً للمنظمة الصهيونية على يهود إنجلترا، وللفكر الصهيوني على يهود العالم.

الفصل الخامس

علاقة الصهيونية بالمسيحية

موضوع علاقة الصهيونية بالمسيحية موضوع خلافي ومركب، متعدد الأبعاد، يحتاج إلى كثير من التأمل وإعادة النظر في المصطلحات وما تخفيه من مفاهيم، فهو ليس بموضوع ديني محض، وإنما له بعد سياسي. ولذا نجد أن بعضاً ممن له مصلحة يقوم بلي عنق المصطلحات ليفرض عليها مفاهيم معينة حتى يمكنه توظيفها لصالحه. وهذا ما فعله الصهاينة وأنصارهم. ومع الأسف هناك في العالم العربي من ينقل ما يرد لنا من مصطلحات، ثم يرددها ببغائية مذهلة، دون أن يدرك عملية التشويه التي تمت، والتي لا تخدم إلا صالح أعداء الوطن والأمة.

وقد اخترقت مثل هذه المصطلحات الخطاب التحليلي العربي. خذ على سبيل المثال مصطلحاً مثل "الحروب الصليبية"، هذه ترجمة للكلمة الغربية (الإنجليزية) **Crusade** نسبة إلى **cross** ، أي الصليب. وهي تعني أن الحملات الصليبية كانت حملات مسيحية، بينما يعرف أي دارس لهذه الواقعة التاريخية أنها كانت حملات استعمارية حتى النخاع والمسيحية بريئة منها. وقد أدرك المؤرخون العرب والمسلمون المعاصرون لهذه الحملات طبيعتها الاستعمارية الاستيطانية، ولذلك كانوا يسمونها "حروب الفرنجة" نسبة إلى غالبية العنصر البشري الذي قام بالغزو والسلب والنهب (الذي أتي أساساً من بلاد الفرانك، أي فرنسا). وهو غزو وسلب ونهب لم يكن يفرق بين المسلم والمسيحي واليهودي، ولذا قامت بعض هذه الحملات التي يقال لها "صليبية" بسلب بيزنطة عاصمة المسيحية الشرقية، بل يقال إن هذه الحملات أنهكت قوى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، الأمر الذي جعل سقوطها في يد العثمانيين فيما بعد أمراً يسيراً، وفي عصرنا الحديث، بدلاً من استخدام المصطلح العربي القديم الدقيق، الدال على طبيعة الظاهرة، قمنا بترجمة المصطلح الغربي، الذي يحاول إخفاءها وتعميتها.

وإذا كان هذا هو الحال مع مصطلحات واضحة البراءة مثل "الحروب الصليبية" و"المسألة اليهودية" فما بالكم بمصطلحات مثل "التراث اليهودي المسيحي" و"الصهيونية المسيحية" اللذين شاع استخدامهما في الآونة الأخيرة، وهما مصطلحان يفهم منهما أن ثمة علاقة قوية، بل عضوية، بين اليهودية والمسيحية وبين المسيحية والصهيونية. وقد بلغ المصطلحان من الذيوع أن كثيراً من الناس يتقبلونهما وما يعبران عنهما من مفاهيم، باعتبار أنهما من البديهيات. ولكن الرؤية المتفحصة لهذين المصطلحين تبين أن علاقتهما بالواقع واهية لأقصي حد، وأنهما مصطلحان "أيديولوجيان" بمعني أنهما لهما مضمون فكرى متحيز لأيديولوجيات بعينها (الإمبريالية والصهيونية).

التراث اليهودي المسيحي؟

وأنا أذهب إلى انه يوجد عنصر أخلاقي مشترك بين الديانات الثلاثة:

اليهودية والمسيحية والإسلام (يصلح أساساً لعقد اجتماعي جديد). ولكن إلى جانب نقط الاتفاق الأخلاقية توجد نقط اختلاف، بعضها جوهري، في رقعة أصول الدين أو لاهوته. ومصطلح "التراث اليهودي المسيحي" يتجاهل مثل هذه الاختلافات، فهو يفترض أن اليهودية والمسيحية يكونان كلاً واحداً. وهو ادعاء له ما يسانده بشكل جزئي داخل النسق الديني المسيحي ولكنه لا يعبر بأية حال عن الصورة الكلية إذ أنه يتجاهل حقائق دينية أساسية. فهناك الاختلافات الأساسية الواضحة بخصوص

طبيعة الإله وعلاقته بالبشر. كما يختلف موقف اليهودية والمسيحية من الخطيئة بشكل جوهري، فالمسيحية تؤمن بأن الإنسان ساقط بسبب الخطيئة الأولي. أما اليهودية، فلا تؤمن بالخطيئة الأولي. ولذا فأن أداء الشعائر، واتباع الأوامر والنواهي، في السياق اليهودي، كافيان لخلاص الإنسان. أما في المسيحية (الكاثوليكية على الأقل) لابد من قيام الكنيسة والكهنوت بعملية الوساطة حتى يتم الخلاص، فلا خلاص خارج الكنيسة.

وثمة خلافات بين العقيدتين حول فكرة المسيح، فبينما ترى اليهودية المسيح باعتباره شخصية سياسية قومية سيقود شعبه إلى صهيون ويعيد بناء الهيكل ويؤسس المملكة اليهودية مرة أخرى، فإن المسيح في المسيحية إله/ إنسان مهمته خلاص كل البشرية لا الشعب اليهودي وحسب. (ولذا فنحن في كتابتنا عن الصهيونية واليهودية نشير إلى المسيح المخلص اليهودي بكلمة "الماشيح"، أي نستخدم المنطوق العبري حتى نفرق بين النسقين الدينيين).

وتعد قضية صلب المسيح قضية أساسية ونقطة خلاف رئيسية. فمن المعروف أن كل أمة أو مجموعة عرقية أو دينية تؤمن بأنها مدينة بوجودها لشكل من أشكال التضحية والفداء الرمزي أو الفعلي الذي يكتسب مكانة رمزية ويصبح بمثابة الركيزة النهائية للنسق ولحظة التأسيس. وحادثة الصلب في المسيحية هي هذه اللحظة، حين نزل أبن الإله إلى الأرض وارتضي لنفسه أن يصلب، وكان فعله هذا الفداء الأكبر. ولحظة الصلب هذه ليست لحظة زمنية، رغم حدوثها في الزمان، ولا ترتبط بفترة تاريخية معينة رغم وقوعها في التاريخ، فهي كونية. وفي احتفالات الجمعة الحزينة يحاول المسيحي المؤمن أن يستعيد آلام المسيح، هذه الواقعة الكونية التي لا يمكن أن تنافس واقعة أخرى. واليهود عنصر أساسي في حادثة الصلب، فكهنتهم وحاخاماتهم هم الذين حاكموا المسيح وهم الذين أصروا على صلبه، فهم قتلة الرب، الذين يقتلونه دائماً، بإنكارهم إياه.

ورغم المحاولات العديدة، المسيحية واليهودية، لتغيير هذه البنية الرمزية للوجدان المسيحي، فإن مثل هذه المحاولات لا تكلل بالنجاح نظراً لأن المجال الرمزي يتسم بقدر من الثبات ولا يخضع بسهولة للأهواء والتيارات السياسية المتغيرة. ولذا فكثيراً ما تنشب الصراعات فجأة وبلا مقدمات حين يقوم بعض المسيحيين بتمثيل بعض المسرحيات الدينية التي تبرز الرموز المسيحية وتسقط على اليهودي دور قاتل الرب. وقد نشب صراع حول أوشفيتس كان في جوهره صراعاً حول الرموز ومعناها. فحادثة الإبادة (الهولوكوست)، أصبحت في الوجدان اليهودي لا تختلف كثيراً عن حادثة الصلب في الوجدان المسيحي. ولذا حين أقامت بعض الراهبات الكرمليات ديراً في هذا المعتقل لإقامة الصلاة على الضحايا من أي عرق أو دين أو جنسية اعترض ممثلو أعضاء الجماعات اليهودية، لأن هذا يعني فرض لحظة الصلب المسيحية، على لحظة الصلب اليهودية.

وثمة رأي داخل المسيحية يقول بأن العهد الجديد لم ينسخ العهد القديم، ولكنه مع هذا حل محله وتجاوزه. ومع أن الكنيسة لم تستبعد العهد القديم. فإن الإيمان المسيحي يستند إلى أن الشريعة (أو القانون) قد تحققت من خلال المسيح وتم تجاوزها، وأن الرحمة الإلهية والإيمان بالمسيح وسيلة للخلاص حلت محل الشريعة والأوامر والنواهي، ومن ثم كان رفض الشعائر الخاصة بالطعام والختان التي تمسك بها اليهود. وقد ذهب المسيحيون إلى أن اليهودية دين الظاهر والتفسير الحرفي دون إدراك المعني الداخلي أو الباطن، وأن الكنيسة هي يسرائيل فيروس، أي يسرائيل الحقيقية، وأنها يسرائيل الروحية، أما اليهود فهم يسرائيل الزائفة الجسدية التي لا تدرك مغزى رسالتها. وبالتالي، فقد اليهود

دورهم، وأصبحت اليهودية ديانة متدنية بالنسبة إلى المسيحيين. ووصف اليهود بأنهم شعب يحمل كتباً ذكية ولكنه لا يفقه معني ما يحمل.

لكل هذا، أعادت الكنيسة تفسير العهد القديم بحيث اكتسب مدلولاً جديداً مختلفاً تماماً عن مدلوله عند اليهود الذين استمروا في شرحه وتفسيره على طريقتهم، وفهمه فهماً حرفياً وحلولياً وقومياً. ومن ثم اختلف النسق الديني اليهودي عن النسق الديني المسيحي. ومن أهم أشكال الاختلاف أن المسيحية أصبحت ديناً عالمياً، باب الهداية فيه مفتوح للجميع، على عكس اليهودية التي ظلت ديناً حلولياً مغلقاً مقصوراً على شعب أو عرق بعينه يظل وحده موضع الحلول الإلهي. ثم تعمق الاختلاف بحيث أصبحت للمسيحيين رؤية مختلفة تماماً عن رؤية اليهودية.

وقد تبدي كل هذا في شكل صراع تاريخي حقيقي، فقد رفض اليهود المسيح (عيسى بن مريم) ولا يزالون يرفضونه. ويلوم الأباء المسيحيون الأوائل اليهود باعتبارهم مسئولين عما حاق بالمسيحيين الأولين من اضطهاد، وأنهم هم الذين كانوا يهيجون الرومان ضد المسيحيين ويلعنون المسيحيين في المعابد اليهودية، وأنهم هم المسئولون في نهاية الأمر عن صلب المسيح. وهم يرون أن هدم الهيكل وتشتيتهم هو العقاب الإلهي الذي حاق بهم على ما اقترفوه من ذنوب (وتشكل معاداة اليهود، باعتبارهم قتلة الرب، جزءاً أساسياً وجوهرياً من التراث الفني الديني المسيحي من موسيقي ورسم ومسرحيات).

وقد استمر الصراع إلى أن تغلبت المسيحية في نهاية الأمر على اليهودية، وانتشرت بين جماهير الإمبراطورية الرومانية. واستمر من تبقي من اليهود في الإيمان باليهودية ويعبرون عن رايهم، في كتب مثل التلمود والقبالاه، يتحدثون عن المسيح والمسيحيين بنبرة سلبية وعنصرية للغاية.

وقد تحدد موقف الكنيسة (الكاثوليكية) من اليهود في مفهوم الشعب الشاهد، وهو أن اليهود هم الشعب الذي أنكر المسيح الذي أرسل إليهم، وهم لهذا قد تشتتوا عقاباً لهم على ما اقترفوه من ذنوب. ولكن رفض اليهود للمسيح سر من الأسرار، فاليهود في ضعفهم وذلتهم وتشردهم يقفون شاهداً على عظمة الكنيسة، أي أن اليهود بعنادهم تحولوا إلى أداة لنشر المسيحية.

ومن ثم يمكننا أن نقول: إن العلاقة بين اليهودية والمسيحية علاقة عدائية متوترة إلى أقصى حد، واستخدام مصطلح "التراث اليهودي المسيحي" فيه محاولة لطمس معالم ونقط الاختلاف الجوهرية بين العقيدتين حتى يمكن زيادة الدعم الغربي للدولة اليهودية، والحصول على رضاء الجماهير الغربية على هذا الدعم الذي يتنافى مع القيم المسيحية والأخلاقية الإنسانية.

الصهيونية المسيحية

والمصطلح الثاني الذي نود تناوله هو مصطلح "الصهيونية المسيحية"، الذي انتشر في اللغات الأوربية وتسلل منها إلى اللغة العربية. هذا المصطلح يضفي على الصهيونية صبغة عالمية تربطها بالمسيحية ككل، وهو أمر مخالف تماماً للواقع، إذ ليس هناك صهيونية مسيحية في الشرق. بل إن أوائل المعادين للصهيونية بين عرب فلسطين كانوا من العرب المسيحيين، وأول مفكر عربي تنبأ بأبعاد الصراع العربي ــ الصهيوني وبمدى عمقه هو المفكر المسيحي (اللبناني الأصل الفلسطيني الإقامة) نجيب عازوري، كما أن الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تعارضان الصهيونية على أساس عقائدي ديني مسيحي. وإن حدث تقارب ما (كما هو الحال مع الفاتيكان)، فإن ذلك يتم مع دولة إسرائيل ولاعتبارات عملية خارجة عن الإطار الديني العقائدي إلى حد كبير. وهناك في الغرب المسيحي البروتستانتي

عشرات من المفكرين المسيحيين الذين يرفضون الصهيونية على أساس ديني مسيحي أيضاً. ولذا، فإن مصطلح "الصهيونية المسيحية" غير علمي نظراً لعموميته ومطلقيته. ومن هذا يجب الحديث عن "الصهيونية ذات الديباجة المسيحية"، فهي صهيونية غير مسيحية بأية حال، بل صهيونية استمدت ديباجتها (عن طريق الحذف والانتقاء) من التراث المسيحي دون الالتزام بهذا التراث بكل قيمه وأبعاده، ودون استعداد منها لأن يحكم عليها من منظوره الأخلاقي. وفي تصورنا أن هذا هو الفارق بين أية عقيدة دينية وأية عقيدة علمانية، فالمؤمن بعقيدة دينية يؤمن بمجموعة من القيم المطلقة المتجاوزة لإرادته (فهي ليست من إبداعه ولا من إبداع غيره من البشر)، ومن ثم يمكن تقييمه وتقييم سلوكه من منظور هذا القيم. أما العقيدة العلمانية، فهي مجموعة من القيم النسبية المتغيرة، ولا يمكن أن يحاكم الإنسان العلماني من منظورها إذ بوسعه أن يرفضها ويتنكر لها ويعدلها بما يتفق مع مواقفه المتغيرة واحتياجاته المتطورة وأهوائه المتجددة ورغباته التي لاتنتهي. ولذلك فإن المسيحيين الذين يقومون بتعديل عقيدتهم لتتفق مع رؤيتهم ومصالحهم السياسية، يقومون بتطويع العقيدة الدينية لأهوائهم السياسية.

وتستند الصهيونية المسيحية إلى العقيدة الألفية الاسترجاعية التي تعود جذورها إلى اليهودية وإلى كثير من العقائد الشعبية، ولكنها مع هذا أصبحت فكرة مركزية في المسيحية البروتستانتية. إذ يؤمن كثير من المسيحيين البروتستانت بأنه حينما يعود المسيح المخلص (الذي يشار إليه بأنه "الملك الألفي") سيحكم العالم (باعتباره الملك المقدس) هو والقديسون لمدة ألف عام يشار إليها أحياناً باسم "أيام المسيح" أو "الألف السعيدة"، وهي فترة سيسود فيها السلام والعدل في عالم التاريخ والطبيعة وفي مجتمع الإنسان والحيوان.

وكما تبدأ الألف السعيدة، لابد أن يتم استرجاع اليهود إلى فلسطين تمهيداً لمجيء المسيح. ومن هنا، فإن العقيدة الأسترجاعية هي مركز وعصب العقيدة الألفية. ويرى الاسترجاعيون أن عودة اليهود إلى فلسطين هي بشري الف العام السعيدة، وأن الفردوس الأرضي الألفي لن يتحقق إلا بهذه العودة. كما يرون أن اليهود هم شعب الله المختار القديم أو الأول (باعتبار أن المسيحيين هم شعب الله المختار الجديد أو الثاني). ولذا، فإن أرض فلسطين هي أرضهم التي وعدهم الإله بها، ووعود الرب لا تسقط حتى وإن خرج الشعب القديم عن الطريق ورفض المسيح (وصلبه). ولذا، فإن كل من يقف في وجه هذه العودة يعتبر من أعداء الإله ويقف ضد الخلاص المسيحي، فأعداء اليهود هم أعداء الإله.

ويلاحظ هنا أن الفكر الحلولى المسيحي ــ شأنه شأن الفكر الحلولى اليهودي ــ يجعل اختيار الإله لليهود ليس منوطاً بفعلهم الخير وتحاشيهم الشر، فهي مسألة عضوية حتمية تتجاوز الخير والشر. كما أنه جعل الخلاص مسألة مرتبطة باليهود، ومنح اليهود مركزية في رؤيا الخلاص.

ومن الواضح أن العقيدة الاسترجاعية، شأنها شأن العقيدة الألفية، تفترض استمراراً كاملاً ووحدة عضوية بين اليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثم فهي تنكر التاريخ تماماً. ولكن هذا "التقديس" لليهود يضمر كرها عميقاً لهم ورفضاً شاملاً لهم ولوجودهم، ذلك أن بنية العقيدة الاسترجاعية هي نفسها بنية فكرة الشعب العضوي المنبوذ، أي أن اليهود، شعب مختار، متماسك عضوياً، يرفض الاندماج في الشعوب الأخرى، ولذا لابد من نبذه ونقله إلى مكان آخر! ويمكن أن نلخص هذا الفكره وذلك الرفض في العناصر التالية:

1ــ يذهب الاسترجاعيون إلى أن اليهود أنكروا المسيح وصلبوه، وأن عملية استرجاعهم إن هي إلا جزء من عملية تصحيح لهذا الخلل الخلاص بل هم مركز الخلل وسببه. والواقع أنهم إذا كانوا مركز الخلاص فهذا يعود إلى أنهم بإنكارهم المسيح أصبحوا مركز الخلل وسببه الأساسي وتجسيد للشر في التاريخ. والخلاص لا يمكن أن يتم إلا بتطهير مركز الخطيئة (تنصير اليهود أو إبادتهم). ولعل هذا التركيز على أن اليهود أصل الخطيئة يفسر لأن المسيح الدجال (الذي سيكون ظهوره هو أقصى درجات الشر) سيكون يهودياً (من سوريا)، وأنه هو الذي سيقود ملوك الأرض ضد المسيح في المعركة الأخيرة (هرمجدون).

2ــ تذهب العقائد الألفية والاسترجاعية إلى أن عملية الخلاص النهائي ستصاحبها معارك ومذابح تصل ذروتها في معركة واحدة أخيرة (هرمجدون)، وهي معارك سيروح ضحيتها ثلثا يهود العالم وستخرب أورشليم (القدس). بل إنه كلما ازداد العنف ازدادت لحظة النهاية اقترابا، فكأن التعجيل بالنهاية لا يتم هنا من خلال فعل أخلاقي يقوم به المسيحيون وإنما من خلال تقديم قربان مادي جسدي للإله (هولوكوست) يشوى بأكلمه. بل إن أبعاد هذه المذبحة ستكون أوسع مدى من المحرقة النازية. فكأن العقيدة الاسترجاعية هي عكس العقيدة المسيحية. ففي العقيدة المسيحية، يأتي المسيح وينزف دمه ويصلب ويهزم، فهو قربان يقدمه الإله فداء للبشر بأسرهم، قربان لا حاجة بعده إلى قرابين. أما العقيدة الاسترجاعية فتذهب إلى أن المسيح قائد عسكري يدخل المعارك ويثخن في الأعداء ثم ينتصر. واليهود هم الذين سينزفون، وهم قربان للرب الذي لا حاجة بعده إلى قرابين، ولذلك فإن ذبحهم (أو صلبهم) يشير إلى النهاية الألفية السعيدة. كما أن اليهود، حسب الرؤية المسيحية التقليدية، كانوا دعاة القومية، على حين أن المسيح هو داعية العالمية. أما هنا، فإن العكس هو الصحيح، فاليهود هم مركز خلاص العالم والمسيح هو القائد القومي الذي سيؤسس مملكته في صهيون.

3ــ انتهت حياة المسيح الأولى بإنكار اليهود له وصلبه، أما حياته الثانية فستنتهي بإعلان انتصاره وبالتدخل في آخر لحظة لإنقاذ البقية الباقية من اليهود (وإعادتهم إلى أرضهم)، فيخر اليهود أمام المسيح ويعترفون بألوهيته ويقابلونه باعتباره الماشيح المنتظر ويتحولون إلى دعاة تبشير بالمسيحية ينشرون الإنجيل في العالم، أي أن المسيح سينجح في إقناع اليهود بما فشل في إقناعهم به أول مرة. وحينما يحدث ذلك، تكون قد اكتملت الدائرة وتمت هداية العالم بأسره.

4ــ العقيدة الاسترجاعية عقيدة تحوسل اليهود تماماً، أي تحولهم إلى وسيلة أو أداة نافعة وأساسية لخلاص المسيحيين ولكنها لا قيمة لها في حد ذاتها، فهم يستمدون قيمتهم من مقدار أدائهم لوظيفتهم ومقدار تعجيلهم بعملية الخلاص المسيحية.

والعقيدة الألفية الاسترجاعية ترفض التفسير المجازي للعهدين القديم والجديد وأن ما أتي فيهما هي نبوءات حرفية عن المستقبل. فيرى الألفيون، على سبيل المثال، أن العبارات التي وردت عن خراب أورشليم (القدس) تشير إلى حروب عام 1967 أو عام 1948. أما الرؤية المسيحية التقليدية، فتذهب إلى أنها تحققت بالفعل عام 70 ميلادية على يد تيتوس.

ويقوم هؤلاء الاسترجاعيون ــ كما أسلفنا ــ بحوسلة إسرائيل بشكل حاد. وعلى سبيل المثال، فإن تيرى ريزنهوفر (المليونير الأصولي الأمريكي الذي يقوم بتمويل عملية إعادة بناء الهيكل) يرى أن السلام بين إسرائيل وجيرانها مسألة مستحيلة. وبصفة عامة، فإن الرؤية الاسترجاعية ترى أن هرمجدون نبوءة حتمية لابد أن تتحقق. بل ويرى الاسترجاعيون ضرورة تحريك الأمور باتجاه

الحرب لإضرام الصراع والتعجيل بالنهاية (ولذا، فإن موقفهم من مفاوضات السلام أكثر تشدداً من موقف أكثر صقور إسرائيل تشدداً). ولا يختلف الأمر كثيراً بشأن حدود أرض الميعاد، فهذه الحدود معطي ثابت مقدس لا يمكن التفاوض بشأنه. كما أن حدود إسرائيل التي يتخيلها الاسترجاعيون أكثر اتساعاً من حدود إسرائيل الكبرى التي يتخيلها أكثر الصهاينة تطرفاً. فحدودها، حسب الرؤية الاسترجاعية، تضم الأردن وأجزاء من مصر ولبنان ومعظم سوريا (وضمنها دمشق)، أي أن الاسترجاعيين يرون ضرورة سفك الدم اليهودي تحقيقاً لرؤيتهم لنبوءات الكتاب المقدس.

لكل هذا نجد أن يهود أمريكا لا يرحبون كثيراً بهذه الصهيونية التي تدعي المسيحية (والتي تطالب بنقلهم إلى إسرائيل ووضعهم في حالة حرب دائمة). هذا على عكس الدولة الصهيونية التي تجد أن هؤلاء الصهاينة الذين يستخدمون الديباجات المسيحية يكونون لوبي صهيوني قوى يعيش في صلب المجتمع الأمريكي. إن القضية مركبة ومتداخلة إلى أقصى حد، ومع هذا نجد في عالمنا العربي من يتحدث عن "الصهيونية المسيحية" وكأنها بالفعل "مسيحية"، وليست حركة حرفية تخضع النص المقدس لأهوائها، وتستخدم ديباجات مسيحية لتخبئة المضمون السياسي الاستعماري العلماني.

التفسيرات الحرفية

والنص المقدس ــ في تصوري ــ نص مجازي توليدي، لا يمكن فهمه إلا بإدراك طبيعته المجازية، فهو نص يشير إلى الدنيا والآخرة، عالم الشهادة وعالم الغيب، عالم الحواس وما وراء الحواس، فهو نص ثنائي وليس واحدى. أما النص العلماني فهو نص دقيق ترتبط الدوال فيه بمدلولات حسية أو مادية، فهو نص يشير إلى الدنيا وعالم الحواس والمادة وحسب. فالفرق بين النص المقدس والنص العلماني هو مثل الفرق بين الشعر (الذي يتعامل مع ظاهرة الإنسان) والمعادلة الجبرية (التي تتعامل مع عالم الأرقام الذي لا يعرف الضحك أو البكاء). فالمعادلة الجبرية قد تتسم بالدقة، ولكنها الدقة التي تستبعد الإنسان. ويجدر بنا أن نفرق بين الحرفية والأصولية (وهذان مصطلحان آخران يتم الخلط بينهما). فالأصولية هي رفض لكثير من الممارسات الدينية وبعض تفسيرات الكتاب المقدس التي تراكمت عبر العصور ودعوة للعودة لأصول الدين ومحاولة تفسيرها تفسيراً جديداً وتوليد معان جديدة منها تتلاءم مع الزمان والمكان اللذين يوجد فيهما المفسر "الأصولي". وهو رغم رفضه لبعض التفاسير الموروثة، لا يلجأ إلى التفسير الحرفي، إلا إذا كان النص المقدس يتطلب ذلك. كما أن "الأصولي" لا يجتزئ من النص المقدس مقطعاً ينتزعه من سياقه ثم يفرض عليه أي معني حرفي قد يروق له (ويتفق مع مصلحته)، بل يفسر في إطار ما يتصوره المنظومة الدينية الكلية، وفي إطار النص المقدس في شموله وكليته وتركيبيته. وهذا ما فعله كثير من المفكرين الإصلاحيين سواء في المسيحية أم الإسلام أم اليهودية.

أما في إطار الحرفية، فيقوم المفسر بتفتيت النص المقدس ثم يفرض عليه ما يشاء من معني، وهو معني لا يتجاوز ما في عالم المادة من أحداث مباشرة. وقد أحرزت التفسيرات الحرفية ذيوعاً في الأوساط الشعبية لأن الشخص العادي (خاصة في العصر الحديث بعد عزله عن تراثه وتاريخه) يريد أن يشعر ويدرك بحواسه الخمسة ويفضل الدقة والتحدد على التركيب والإبهام (أي أنه يفضل المعادلة الجبرية على الشعر). ولذا فإنه يريد حين يفتح الكتاب المقدس أن يعرف المقابل المادي لما جاء فيه.

والصهيونية المسيحية، شأنها شأن الصهيونية ذات الديباجات اليهودية، تدور في إطار الحرفية، وهي أيضاً تلوى عنق النص المقدس وتوظفه لصالحها. فجيري فالويل، الواعظ المشهور بتأييده لإسرائيل،

يذهب إلى أن كتاب حزقيال يشير إلى أرض معادية للماشيح هي "روش"، وهي أرض بها مدينتان هما "ميشيسن وتوبال"، وتصبح روش "روسيا" وتصبح ميشسن "موسكو" وتوبال "تيبولسك". وستقوم روش بغزو إسرائيل ونهبها (حسب سفر حزقيال)، ولذا فإن فالويل يفسر هذا بأن روسيا ستقوم بغزو إسرائيل للحصول على الغنائم (أطلق فالويل هذه النبوءات قبل سقوط الاتحاد السوفيتي، فهل يا ترى لا يزال متمسكا بها، أم أنه سيطلق نبوءات من نوع آخر؟). وكلمة "النهب" يقابلها في الإنجليزية كلمة "سبويل **spoil** "، فإن حذفنا أول حرفين فإنها تصبح "أويل **Oil**"، أي البترول، وهنا تصبح الأمور شديدة البساطة ويمكن تحويل الكتاب المقدس إلى دعوة لغزو مصادر البترول والاستيلاء عليها.

الفصل السادس

معاداة اليهود:

تفكيك وتركيب ثلاث حالات

في الفصول السابقة تناولنا بعض الأكاذيب الصهيونية وكيف يقوم الصهاينة بلي عنق الأحداث والأرقام والمفاهيم وتسريب المفاهيم إلينا مثل مفهوم (الشعب اليهودي) و(الصهيونية المسيحية) وأسطورة (ستة المليون). ومن المفاهيم التي تم تسريبها لنا أسطورة أن هذا الشعب اليهودي مشتت عبر تاريخه وأنه دائماً ضحية اضطهاد الأغيار. وقد نجح الصهاينة في إشاعة هذا المفهوم الأخير عن طريق تناول أحداث ووقائع وأساطير العداء لليهودية، بعد تجريدها من سياقها التاريخي والاجتماعي والإنساني بحيث يمكنهم فرض معني صهيوني عليها. وهذا ما يمكن أن يحدث لأية واقعة تاريخية تتحول إلى مجرد واقعة ليس لها ابعاد تاريخية، وقد تسرب هذا المفهوم الصهيوني إلى وجداننا وأصبح ــ دون أن نعي ــ جزءاً من ترسانتنا الإدراكية. وفي هذا الفصل سنتناول ثلاث وقائع عادة ما يشير لها الصهاينة في كتاباتهم، وسنحاول أن نبين كيف يفرضون الدلالة الصهيونية عليها، أي أننا سنقوم بعملية تفكيكية توضح لنا المفاهيم الصهيونية الكامنة وكيف تنجح هذه النماذج في أن تعيد صياغة الواقع واختزاله بما يخدم الرؤية والمصالح الصهيونية. ولكننا في هذه الدارسة لن نقف عند هذا الحد بل سنقوم بعملية تركيبية وسنحاول أن نطرح تصوراً أكثر عمقا وإنسانية وتفسيرية لنفس الوقائع والأحداث، وسننجز ذلك عن طريق ربط الوقائع التي وردت في الكتابات الصهيونية بوقائع أخرى استبعدها الصهاينة بحيث تظهر الأنماط الإنسانية العامة. كما أننا سنضع هذه الوقائع في سياقها التاريخي والإنساني وبذلك تكسب معناها التاريخ الإنساني الأعمق الذي يحرص الصهاينة على حجبه.

الوقائع الثلاث :

أولي الوقائع هو ما يسمى بـ (تهمة الدم) أي اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبياً مسيحياً في عيد الفصح، سخرية واستهزاء من صلب المسيح. ونظراً إلى أن عيد الفصح المسيحي واليهودي قريبان، فقد تطورت التهمة وأصبح الاعتقاد بأن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم في طقوسهم الدينية وأعيادهم، ونصوصاً في عيد الفصح اليهودي الذي أشيع أن خبز الفطير غير المخمر (الماتزوت) الذي يؤكل فيه يعجن بدماء الضحية.

وتمتد جذور تهمة الدم إلى عصر الإغريق والرومان، أي إلى ما قل العصور المسيحية، فقد أتي في كتابات آيبون الهيليني (السكندري) وديمقريطس الروماني إشارة إلى أن اليهود يقدمون ضحايا بشرية إلى آلهتهم. ولكن هذا الادعاء لم يصبح جزءاً من صورة اليهود الذهنية، ولم توجه هذه التهمة إليهم بشكل متكرر إلا في القرون الوسطي المسيحية في العالم الغربي.

وقد وجهت أول تهمة دم في القرن الثاني عشر في إنكلترا في وقت كان اليهود يمارسون نشاطهم التجاري والمالي، مما كان يعني أن أفراداً كثيرين اقترضوا أموالاً من المرابي اليهودي، ولم ينجحوا في تسديدها. وآلت ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم إلى المرابي. وقد اتهم اليهود حينذاك بأنهم ذبحوا طفلاً عمره أربعة أعوام ونصف العام، يدعي وليام في الجمعة الحزينة في عام 1144. وقد قال أحد اليهود المتنصرين: إن هذا هو عيد الفصح الذي تقوم فيه إحدى الجماعات اليهودية في إحدى مدن أوروبا بذبح طفل مسيحي (وقد نصب وليام قديسا فيما بعد). ثم وجهت تهم دم أخرى في مناطق

مختلفة في إنجلترا، بين العامين 1168 و1192. وقد انتشرت التهمة في فرنسا، فوجهت التهمة في بلوا، في العام 1171. كما وجهت التهمة إلى اليهود خمس عشرة مرة في القرن الثالث عشر، ومن بينها حالة هيومن لنكولن (1255) التي يذكرها تشوسر في حكايات كانتربرى. وقد استمر توجيه التهمة حتى منتصف القرن العشرين، ومن أشهرها حادثة دمشق (1840) وقضية بيلس (1913). وتعد حادثة دمشق استثناء في أنها حدثت في العالم الإسلامي، إذ إنها تكاد تكون ظاهرة مقصورة على العالم المسيحي وكانت تهمة الدم تأخذ عادة الشكل التالي: يختفي شخص مسيحي (في العادة طفل) أو يوجد ميتاً، فيتذكر أحد الأشخاص أن هذا الطفل شوهد آخر مرة بجوار الحي اليهودي أو أن هناك عيداً يهودياً ما (تتطلب شعائره دما نصرانيا) فيوجه إلى اليهود تهمة قتله ويتم القبض على بعض أعضاء الجماعة اليهودية، ويتم تعذيبهم ثم شنق بعضهم.

أما الواقعة الثانية، فهي حادثة دريفوس الشهيرة، وبطلها هو الفريد دريفوس (1856ــ 1935) الذي كان من كبار الضباط الفرنسيين وكان اليهودي الوحيد في هيئة أركان الجيش الفرنسي، وقد ولد دريفوس في الالزاس لامرأة يهودية ثرية مندمجة في محيطها الفرنسي. ونظرا إلى أن اسمه كان فلهاوزن، وهو اسم ألماني النكهة، فقد غيره إلى اسمه الفرنسي الذي اشتهر به. وقد اتهم دريفوس عام 1894 بأنه أعطي وثائق سرية عسكرية للملحق العسكري الألماني في باريس، وقد قامت السلطات العسكرية بمحاكمته. وتابعت الصحافة المعادية لليهود آنذاك الأحداث. وكانت تعبىء الرأي العام ضد دريفوس، مما خلق جواً غير ملائم لضمان حياد المحاكمة. وفي نهاية الأمر، قضت المحكمة عليه بالسجن مدي الحياة، وجرد من رتبته علناً أمام الجماهير. ونفي إلى (جزيرة الشيطان) (ديفلز ايلاند) التي تقع على الساحل الأفريقي. وكانت مستعمرة من قبل فرنسا. وقد رحبت الصحافة المعادية لليهود بالحكم.

أما الواقعة الثالثة، فهي حادثة ليوفرانك، وهو يهودي أمريكي ولد في تكساس ونشأ في بروكلين. وكان يعمل مديراً لمصنع أقلام في اتلانتا جورجيا، حيث قبض عليهم بتهمة قتل فتاة بيضاء عمرها 13عاماً، تدعي ماري فيغان، بعد محاولة اغتصابها. وقد حوكم فرانك وصدر حكم بإعدامه ويقال: إن كونه يهوديا كان عنصراً هاماً أثر في محاكمته وفي الأحداث التي تلتها. وحينما خفف حاكم الولاية الحكم إلى السجن مدي الحياة، هاجمت مجموعة من المواطنين السجن واختطفت فرانك وشنقته في المدينة التي ولدت ودفنت فيها ضحيته المفترضة، وهو ما يسمى في اللهجة الإنجليزية ــ الأمريكية **Lynching**.

"تهمة الدم" في سياقها التاريخي

وترد الوقائع الثلاث السابقة في الكتابات الصهيونية بهذا التجريد. والنتائج التي يستخلصها القارئء، أو التي تستخلص له، هي أن اليهود لا ينتمون إلى مجتمعاتهم؛ إذ أن مجتمعات الأغيار تنبذهم وتضطهدهم، لا لذنب اقترفوه سوى لأنهم (يهود). والفارق الوحيد هنا بين الصهاينة وأعداء اليهود أن الفريق الثاني يقول: إن كل المجتمعات تنبذ اليهود وتضطهدهم لأنهم يستحقون ذلك. ولكن الفريقين يتفقان على حتمية النبذ والاضطهاد، بسبب طبيعة اليهود الخاصة، وبالتالي حتمية خروجهم.

وطبيعة اليهود الخاصة هذه هي التي تصبح (القومية اليهودية) في الخطاب الصهيوني، أما الاضطهاد (والنبذ) فيصبحان الحركة الطاردة من المجتمعات الأصلية، و(الخروج) يصبح الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين. وبالتالي، فنحن من منظور أخلاقي ومعرفي وعملي، يجب أن نقف ضد معاداة اليهود. ومن

النادر أن نجد مثل هذا التوافق شبه الكامل بين المستويات الثلاثة المتناقضة في أية قضية من القضايا، إذ عادة ما يوجد تناقض بين المنظورين الأخلاقي والعملي، كما أن المنظورين المعرفي والأخلاقي قد لا يتفقان بالضرورة.

ولنبدأ بتهمة الدم، ولنحاول أن نضعها في سياق تاريخي إنساني عام. ظهرت تهمة الدم بعد أن تحول أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي إلى جماعات وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والربا. وكان يتم تشبيههم بالأسفنجة التي تمتص نقود كل الطبقات، والطبقات الشعبية على وجه الخصوص، ثم يعتصرها الإمبراطور لحسابه بعد ذلك، (وهو أمر لم تكن تدركه الطبقات الشعبية). ومن هنا الإشارة إلى اليهود كأعضاء جماعة وظيفية وسيطة (لا إلى اليهود كيهود) على أنهم مصاصو دماء. وليس من الصعب على الوجدان الشعبي تحويل المجاز إلى حقيقة.

وتوجيه تهمة الدم كان يعني في واقع الأمر شنق عدة يهود، من ضمنهن عدد كبير من المرابين، فقد كانت هذه هي إحدى أهم الوظائف التي اضطلع بها اليهود في التشكيل الحضاري الغربي. وكان هذا يعني في كثير من الأحيان سقوط الديون؛ أي أن توجيه تهمة الدم يشبه، من بعض الوجوه، التخطيط لسرقة مصرف من المصارف؛ وشنق اليهود كان بمثابة النجاح في هذه العملية، وهي عملية تشبه، أيضاً، عمليات روبن هود، الذي كان يسرق من الأثرياء ليعطي الفقراء. ولكن الخزانة الملكية كانت تستفيد أحياناً من تهمة الدم، حينما كانت ترث ديون المرابي الذي يشنق أو يطرد. إن النخبة الحاكمة كانت تنتهز الفرصة لابتزاز أعضاء الجماعة اليهودية لحمايتهم.

ويبدو أن تهمة الدم صورة إدراكية نمطية تتكرر في الوجدان الشعبي، وهي عادة اتهام يستخدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم. وقد أتهم الغجر يخطفون الأطفال ويمصون دمهم، كما وجهت التهمة عينها إلى المسيحيين الأول؛ وكذلك إلى الغنوصيين، و إلى إحدى الفرق الدينية الإيطالية في عام 1466. وقد اتهم المبشرون المسيحيون في الصين، في عام 1870، بأنهم يسرقون الأطفال الصينيين، ليصنعوا منهم دواء سحريا. واتهم الأجانب في مدغشقر، في عام 1891، بابتلاع قلوب البشر. أما الرهبان الدومينكان، فقد اتهمهم أعداؤهم من الرهبان الفرنسيسكان باستخدام دم وحواجب طفل يهودي في بعض طقوسهم السرية أي أن تهمة الدم لم تكن مقصورة على اليهود. وإذا كان المرابون الآخرون في العصور الوسطي الغربية، مثل اللومبارد والكوهارسين (وهم مسيحيون) لم توجه إليهم تهمة الدم ــ حسب علمنا ــ فقد وجهت إليهم تهم أخرى، لا تقل عنها سوءا؛ كما أنهم كانوا عرضة للطرد، وللمصادرة، والشنق.

وقد ساعد تكرار مناظر الدم والقتل في العهد القديم على إلصاق التهمة باليهود دون المرابين المسيحيين. كما أن طقوس اليهود الدينية، خاصة طقوس عيد الفصح، كانت تثير الريبة في نفوس أعضاء الأغلبية، الأمر الذي كان يجعلهم يبحثون عن تفسير لها (هذا مع العلم بأن العهد القديم يمنع شرب الدم، أو أكل اللحم قبل تصفية الدم منه).

ولم يكن اليهود يقفون في مقابل الأغيار كما يدعي الصهاينة بذلك. فالنخبة الحاكمة (الكنيسة والإمبراطورية والملوك) كانت تدافع عن أعضاء الجماعة ضد التهم التي كانت توجهها إليهم عامة الشعب. فبين البابا انوست الرابع، في مرسوم أصدره عام 1245، أن التهمة باطلة، وحرم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود، ودافع البابا غريغورى العاشر، في مرسوم أصدره عام 1274، عن اليهود. كما فعل بابوات آخرون الشيء عينه. وفي عام 1758 أصدر الكاردينال لورنزو جانجانلي

(البابا كليمنت الرابع عشر، فيما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم. وقد أصدر التحريم عينه الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني (حكم من 1194 إلى 1250) وإمبراطور النمسا رودولف من أسرة الهابسبرج في عام 1275. وقد أصدرت الحكومة في بولندا، في العصور الوسطي، قراراً بأن من يوجه التهمة إلى اليهود دون أن يثبتها ببراهين قاطعة يحكم عليه بالإعدام. وقد حاول الكثير من المسيحيين والعلماء تفنيد التهمة وإقناع الناس ببطلانها؛ ولكنهم، مع هذا فشلوا في مسعاهم، واستمرت تهمة الدم مرتبطة، ارتباطا وثيقاً بصورة اليهودي، حتى عهد قريب.

أما تهمة الدم في حادثة دمشق، فقد كانت مرتبطة بالصراع بين الاستعمارين البريطاني والفرنسي الذين كانا يتنافسان على مد نفوذهما عن طريق "حماية أعضاء الأقليات الدينية". فكان الفرنسيون "يحمون" الكاثوليك والمارونيين (الذين وجهوا تهمة الدم) وكان البريطانيون، نظراً إلى عدم وجود مسيحيين بروتستانت بأعداد كبيرة في العالم العربي (يحمون) اليهود، خاصة وأن روسيا، وهي بلدهم الأصلي، لم تكن مهتمة بهم كثيراً بسبب وجود المسيحيين الأرثوذكس، ولأن روسيا لم يكن لها أطماع في الشرق الأوسط، إذ أن مشروعها الاستعماري كان موجها إلى مناطق أخرى. وقد أصدر السلطان العثماني فرماناً يجرم فيه تهمة الدم.

المسألة إذا أكثر تركيبا مما يصورها الصهاينة، فتهمة الدم ظاهرة شعبية، ليست مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية. كما أن العالم لم يكن ينقسم إلى يهود وأغيار، فالسلطات الحاكمة كانت تقف في صف اليهود، إما لأسباب دينية (كما هو الحال مع الكنيسة) أو لأسباب اقتصادية (كما هو الحال مع الأباطرة) أو لخليط منها (كما هو الحال مع الخليفة العثماني).

دريفوس والصراع بين الكنيسة والقوى العلمانية

أما الواقعة الثانية، فهي واقعة الفرد دريفوس، التي وصفت بأنها تركت أثراً عميقاً في هرتزل، إلى درجة أنه اكتشف عبث محاولة الاندماج، فتبني بدلاً من ذلك الحل الصهيوني. وهذه في حد ذاتها عملية تبسيط فجة للعوامل التي أدت بهرتزل إلى اقتراح الدولة الصهيونية حلاً للمسالة اليهودية. ولكن من الحقائق التي لا توردها المراجع الصهيونية أن هرتزل نفسه كان مقتنعا في بادئ الأمر بأن دريفوس كان مذنباً وخائناً، ولا أعرف ما الذي جعله يغير رأيه فيما بعد. ولكن ليس هذا هو موضوع الحديث، ولذلك فسوف نحاول أن نضع واقعة دريفوس في إطارها التاريخي والاجتماعي والإنساني.

ابتداءً، كان دريفوس محل شك المخابرات الفرنسية، لأسباب وجيهة فالقوات الفرنسية كانت تجند كثيراً من يهود ألمانيا ويهود الالزاس واللورين للعمل جواسيس لحسابها. ولذا ساد الاعتقاد بأنه لابد وأن ألمانيا ذاتها كانت تفعل الشيء نفسه (وهو أمر متوقع). ويجب أن نتذكر أن هذا جزء من الإدراك الأوروبي لليهود، وهو إدراك كانت تدعمه بعض الممارسات التاريخية. ففي القرن السابع عشر، لعب أفراد الجماعات اليهودية في أوروبا دوراً أساسياً في عملية التجسس بين الدول، وقد حاول اوليفر كروميل أن يخطب ود اليهود ويوطنهم في إنكلترا، حتى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له.

ويلاحظ أن تلك الفترة شهدت كساداً اقتصادياً في أوروبا، الأمر الذي أدى إلى انتقال أعداد كبيرة من المهاجرين إلى فرنسا، فجاء مهاجرون من إيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية. فكان عدد الإيطاليين 112 ألفا في عام 1872، ازداد إلى 300 ألف في عام 1890. وقد جاء معهم قرويون، من القرى الفرنسية، يتحدثون لهجاتهم المحلية، مثل البريتون والأفيرنيان **Auvergnat**، كما هاجرت أعداد

كبيرة من يهود الألزاس واللورين الذين لم يكونوا قد اصبطغوا بعد بالصبغة الفرنسية. ووصلت أعداد كبيرة من يهود شرق أوروبا، الذين يتحدثون اليديشية (وهي رطانة ألمانية). وقد أدى كل هذا إلى زيادة عدد الأجانب. كما أن تزايد يهود شرق أوروبا ويهود الالزاس واللورين على حساب العنصر اليهودي الفرنسي المحلي أدي إلى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على أنهم أجانب. ومن المعروف أنه في فترات الكساد الاقتصادي، تتعرض العناصر الأجنبية للهجوم من قبل السكان المحليين الذين يتهمون العناصر الوافدة بأنها سبب الأزمة، إذ أن العامل الأجنبي يرضي بأجر أقل ومستوى معيشي أكثر انخفاضاً. علاوة على هذا، كان الجو العام في فرنسا آنذاك متوتراً، خاصة بالنسبة إلى أفراد الجماعة اليهودية، بعد هزيمة الجيش الفرنسي على يد الألمان في عام 1870، إذ كانت العناصر الليبرالية (التي كانت تضم نسبة عالية من اليهود) تقف ضد فكرة الانتقام من ألمانيا. كما أن المد العلماني كان آخذا في التزايد، وفي الإصرار على فصل الدين عن الدولة بشكل كامل. ويجب أن نتذكر أن الثورة الصناعية قد اقتلعت الكثيرين من جذورهم، وأدت إلى إفقارهم، وقذفت بهم إلى المدن الكبرى مثل باريس. وكان المقتلعون هؤلاء يشعرون بعدم الأمن تجاه المجتمع الجديد، بعلمانيته وثوريته وقيمه التجارية والذي كان اليهود يتواجدون في مركزه. إضافة إلى ذلك، كان هناك عدد كبير من اليهود بين قادة كومونة باريس في عام 1871. وقد أدى هذا كله إلى الربط بين الجماعة اليهودية والعناصر الثورية العلمانية والفوضوية في المجتمع. وعلى الرغم من هذا ارتبط اليهود (عبر تاريخ أوروبا، منذ العصور الوسطي حتى العصر الحديث) بالمصالح المالية الكبيرة بالمصارف وبالشبكات المالية والتجارية، وهي صورة دعمها بروز أسرة روتشيلد في عالم التجارة والمال.

وهكذا أصبح اليهودي رمزا متبلورا لكثير من العناصر المتناقضة ومحط شك الجماهير وكرهها، فهو الأجنبي البغيض، وهو الثوري العلماني التقدمي الذي يحمل لواء المجتمع الجديد المدمر، ولا يكترث بأية قيمة سوى الربح، ولا يرتبط بأية أرض سوى السوق، وقد كانت الصحف المعادية لليهود تشير إلى دريفوس باعتباره الزاسياً وأجنبياً وعضواً في طبقة الممولين الأثرياء.

وقد انضمت أعداد كبيرة من ضحايا الثورة الصناعية إلى التنظيمات المعادية لليهود التي كانت تستخدم خليطاً جذاباً ومريحاً من الديباجات المسيحية والاشتراكية والعرقية، وتطرح صورة لمجتمع مبني على التضامن المسيحي، والتكافل الاجتماعي، والتعاون الاقتصادي، يقف على طرف النقيض من المجتمع الصناعي الجديد، المبني على التنافس والتقاتل، والذي يؤمن بإمكانية البقاء للأصلح وللأقوى وحسب. وقد انضمت غالبية أفراد الجماعة اليهودية المتمركزين في العاصمة إلى القوى العلمانية والتقدمية التي أدارت المعركة مع العناصر الدينية والمحافظة. فاليهودي كان بلا شك رمزاً هاماً للقوى الجديدة؛ ولكنه لم يكن قط أحد أطراف المعركة؛ إذ أنه كان جزءاً من كل، والكل هو القوى الاجتماعية المتصارعة في المجتمع الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر، والتي كانت كل واحدة منها تحاول أن تصوغ المجتمع حسب رؤيتها. وقد حولت هذه القوى قضية دريفوس إلى حلبة صراع فيما بينها.

ففي عام 1896، اكتشف جورج بيكار، رئيس مخابرات الجيش الفرنسي والبطل الحقيقي لواقعة دريفوس، أدلة تثبت براءته من التهمة المنسوبة إليه، وتشير بأصابع الاتهام إلى شخص آخر هو الميجور استرهازى، الذي كان قد لعب دوراً هاماً في سير أحداث القضية بحيث انتهت إلى الإدانة التامة للكابتن دريفوس، وقد حاول بيكار إقناع المسئولين بإعادة المحاكمة، ولكنه أمر بالتزام الصمت، ونقل إلى تونس بسبب ذلك.

وقد شنت حملة أعلامية مكثفة، قادها المفكر الفرنسي اليهودي، برنارد لازار، للمطالبة بإعادة النظر في القضية؛ وكتب مقالات عدة دافع فيها بحماس عن دريفوس، كما طالب رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي بإعادة النظر في القضية، لاقتناعه ببراءة دريفوس. وتحت إلحاح الموقف المتفجر وإصرار بيكار قبض على الميجور استرهازى، وحوكم ذرا للرماد في العيون، ولكنه بريء بسرعة، لعدم كفاية الأدلة. فكتب الروائي الفرنسي أميل زولا سلسلة مقالات تحت عنوان "إني أتهم" هاجم فيها المحاكمتين؛ وكانت النتيجة أن اتهم زولا بالقذف العلني، وحكم عليه بالسجن، فهرب إلى إنجلترا. وفجأة برزت أحداث جديدة غيرت مجرى القضية، فقد انتحر شاهد الإثبات الأول في القضية، الكولونيل هيوبرت جوزيف هنري، في أثناء استجوابه، وذلك بعد أن اعترف بتزويره للوثائق التي أدت إلى إدانة دريفوس. وعندما علم أسترهازى بحادث الانتحار، اعترف بجريمته، وفر إلى إنجلترا. وفي صيف عام 1899، أمرت محكمة النقض بإعادة محاكمة دريفوس في ضوء الأحداث التي استجدت، ولكن تحت ضغط بعض الشخصيات ذات النفوذ في الجيش أعلن، مرة أخرى، أنه مذنب. وفي هذه المرة حكم عليه ــ مع مراعاة الظروف المخففة ــ بالحبس عشر سنوات كان قد قضي خمساً منها في المنفي. وبعد أيام عدة، أمر الرئيس الفرنسي أميل لوبيه بالعفو عنه وقد حثه كثير من أصدقائه والمدافعين على استئناف المعركة لإثبات براءته التامة، لأن القضية قضية مبدئية تتجاوز الأشخاص، غير أن دريفوس نفسه لم يكن مدركاً للأبعاد السياسية التي اتخذتها هذه القضية، فكان كل ما يتمناه وتتمناه عائلته الثرية المندمجة، هو الإفراج عنه، سواء عن طريق العفو أو التبرئة؛ ولذا قبل قرار العفو. أما بيكار فقد أصبح بطلاً قوميا، ورقاه رئيس الجمهورية إلى مرتبة بريغادير جنرال، وعين فيما بعد وزيراً للحرب.

وقد أعيدت محاكمة دريفوس، مرة أخرى، في عام 1903، بضغط من القوى العلمانية والثورية، وصدر الحكم بتبرئته، وأعيدت إليه حقوقه السابقة؛ وعين في هيئة الأركان، مرة أخرى، بوظيفة مأموراً، وتلقي وسام شرف؛ ولكنه ما لبث أن ترك الخدمة. وقد عين في أثناء الحرب العالمية الأولي كولونيلاً وقائداً لأحد قطاعات باريس. وقد عمقت هذه القضية الخلافات الموجودة بين مؤيدي، وخصوم، النظام الجمهوري في فرنسا، وأدت إلى تقوية الأحزاب الاشتراكية، وكانت وراء القانون الذي صدر في عام 1905، بفصل الدين عن الدولة.

إن قضية دريفوس لم تكن قضية بسيطة، كما أنها لم تكن قضية يهودية فدريفوس ذاته كان يهودياً ولكنه لم يكن بطل القصة، وإنما موضوعها وساحتها. أما بطل القصة الحقيقي فلم يكن يهودياً، كما أن القوى المتصارعة (العلمانيين ضد الدينين) لم يكن اليهود سوى عنصر واحد من عناصرها الكثيرة، فالقضية كانت قضية خاصة بالمجتمع الفرنسي في إحدى مراحل تحوله الهامة بعد تصاعد معدلات العلمانية فيه. ولا يمكن فهم القضية بالعودة إلى التاريخ اليهودي أو حتى تاريخ الجماعة اليهودية في فرنسا وإنما بالعودة إلى تاريخ فرنسا، وتاريخ أوربا ككل.

واقعة ليوفرانك

أما الواقعة الثالثة، فهي واقعة ليوفرانك. وسنكتشف مرة أخرى أن يهودية ليوفرانك لم تكن هي العنصر الأساسي الذي أدى إلى اضطهاده وقتله، فأهل الجنوب لم ينظروا إليه باعتباره يهودياً، وإنما باعتباره رمزاً متبلوراً لعناصر تاريخية واجتماعية وثقافية عدة، ليس لها علاقة وثيقة بيهوديته، شأنه

في هذا شأن دريفوس. وأهم هذه العناصر على الإطلاق هو أن المجتمع مسرح الواقعة كان يخوض هو الآخر ثورة صناعية حقيقية متأخرة، مع كل ما يصاحب مثل هذه الانقلابات من ظروف صحية سيئة وأمراض اجتماعية عاش في ظلها أعضاء الطبقة العاملة من البيض المحليين، أو المهاجرين المقتلعين من جذورهم الزراعية، سواء في أوروبا أم في الجنوب.

ومن مظاهر الثورة الصناعية تركز السكان في المدن. وقد تضاعف عدد سكان مدينة أتلانتا، في ولاية جورجيا، بين عامي 1900ــ 1913، إذ زاد من 8987 نسمة إلى 173,713 نسمة، وهو يعد أعلى معدل ارتفاع لأية مدينة أميريكية في الفترة عينها (باستثناء برمنجهام في ولاية ألباما). وكان نمو المدينة عشوائياً فلم توجد المؤسسات اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة، مثل أماكن الترويج، أو أماكن السكن، أو ما يكفي من المستشفيات العامة. وكانت أتلانتا تعاني من أزمة مساكن، فقد كان يوجد 30,308 مسكن لـ 35,813 أسرة، ونصف المساكن لا تصله المياه، وكان حوالي 50 ألف شخص يعيشون في منازل لا يوجد فيها نظام للصرف. وكانت نسبة تلوث الجو عالية للغاية، ولهذا انتشرت الأمراض، مثل التيفوئيد وغيره، وارتفعت معدلات الوفاة. ويقال إن 90 بالمئة من المساجين كانوا يعانون من مرض الزهري. وقد زاد فقر سكان أتلانتا بشكل رهيب (كان الطفل يتقاضى 22 سنتا نظير عمله لمدة أسبوع، وكانت مارى فيغان قد ذهبت لتتقاضى أجرها عن أسبوع كامل وهو دولارا وعشرين سنتاً).

ولم يكن الجو موبوءاً من الناحية المادية فحسب، وإنما من الناحية الأخلاقية أيضاً (وهذا أمر متوقع في مثل هذا المجتمع). وقد انتشرت كل أنواع الجرائم، من السرقة والقتل والدعارة والسكر. وكانت نسبة الجريمة في أتلانتا أعلى النسب في الولايات المتحدة الأميريكية، وتعادل نسبتها في شيكاغو عاصمة الجريمة في العالم. وقد قبضت الشرطة، في عام 1907، على 17 ألف شخص من مجموع السكان البالغ عددهم 102,700. ومع هذا، كان جهاز الشرطة هزيلاً للغاية، إذ أن مجموع عدد العاملين في قوة الشرطة كان لا يزيد على 200 شرطي. وكان يوجد في هذه المدينة الواسعة مركز شرطة واحد، ولذا كان كثير من المجرمين يفرون من قبضة القانون، وقيل: إنه من كل ست جرائم قتل كانت تضبط جريمة واحدة. وفي عامي 1913/1912 بالذات، كان هناك 12 جريمة قتل لم يتم الاهتداء إلى مرتكبيها.

هذه هي بعض مظاهر الثورة الصناعية في أتلانتا. ويجب التنبيه إلى أن هذه الثورة كانت جزءا من عملية غزو واسعة. فالجنوب الأمريكي مسرح الواقعة كان لا يزال يشعر بمذاق الهزيمة في الحرب الأهلية (1861ــ 1865) حين هزم الشمال الصناعي الجنوب الزراعي وأكد سلطة الحكومة الفيدرالية على حساب استقلال الولايات المختلفة. وقد فقد ما يقرب من 600 ألف شخص حياتهم إبان هذه الحرب. وبعد انتصار الشمال، ثم فتح الولايات الجنوبية لرأس مال الشمال، وللنخبة الشمالية التي أسست الصناعات وغزت السوق. ويرى بعض المؤرخين أن العلاقة بين الشمال والجنوب كانت علاقة شبه كولونيالية، وأن ما سماه الشماليون "توحيد" الولايات المتحدة الأمريكية هو، في واقع الأمر، غزو شمالي للجنوب وهيمنة عليه. وهو غزو لمجتمع زراعي، كانت تسود فيه علاقات شبه إقطاعية، توجد على قمته أرستقراطية تعتز بمكانتها الرفيعة، وبقيم الجنوب، وبالالتزام الإقطاعي. وكان مجتمع الجنوب مجتمعاً انجلوساكسونياً بروتستانتياً متجانساً، لم يستوطن فيه ملايين المهاجرين، كما حدث في بقية الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة على الساحل الشرقي. وكانت مؤسسة الأسرة قوية للغاية في

مجتمع الجنوب، وتتسم بقدر كبير من التماسك. وكانت المرأة هي رمز هذا التماسك الأسرى، ولذا كانت محط تقديس المجتمع. وأعضاء مثل هذا المجتمع الزراعي الأرستقراطي عادة ما ينظرون بكثير من الاحتقار، بل والبغض، إلى الاقتصاد النقدي، المبني على التعاقد وعلى آليات العرض والطلب.

وقد كانت شكوك أهل الجنوب في محلها، إذ أنه بعد "توحيد" الشمال مع الجنوب فتح الجنوب للصناعات الشمالية، التي هاجرت لتستفيد من العمالة الرخيصة والأراضي قليلة التكاليف والأسواق البكر. وهي صناعات لم تخدم كثيراً تقاليد المجتمع، وساهمت في تفكيك نسيجه المجتمعي، وفي تحطيم بنية الأسرة. فكان الأطفال والنساء يعملون في المصانع لساعات طويلة. وقد أدى دخول الصناعات إلى تزايد معدلات التحديث والعلمنة بكل ما يتبعها من تفكك اجتماعي، خاصة وأن هذه الصناعات لم تظهر نتيجة تطور عضوي بطيء، وإنما فرضت عليه فرضاً من مجتمع اليانكى الشمالي.

كان ليوفرانك رمزاً لهذه القوة الغازية، فهو رجل صناعة ومدير مصنع جاء من الشمال ليستقر في الجنوب، وهو مجتمع زراعي ينظر بعين الشك إلى الصناعة. وكان يقوم باستئجار النساء والأطفال كعمالة رخيصة في مجتمع كان يقدس الأسرة حتى عهد قريب. وكانت تتم الإشارة إلى مارى فيغان على أنها "عاملة المصنع الصغيرة"، أي أنها تحولت إلى رمز الطفولة البريئة التي استغلها المستثمرون من الشمال. وهو كان خريجاً جامعياً وعضواً في النخبة العلمانية المهيمنة، التي لا تكثرت كثيراً بالقيم التقليدية في وسط بيئة جنوبية عمالية مقتلعة من بيئتها الزراعية، لا تزال تؤمن بالقيم التقليدية والمسيحية (البروتستانتية)، تحلم بالمجتمع المتماسك الذي دمر إبان الحرب الأهلية. ولم تكن يهودية فرانك سوى بلورة لكل هذه العناصر السابقة؛ إذ أن المعركة الحقيقة كانت بين الشمال الصناعي الغازي والجنوب الزراعي الذي تم غزوه؛ بين ضحايا التقدم والصناعة، من جهة، وممثلي هذا المجتمع الجديد الرهيب، من جهة أخرى.

ولعله يكون من المفيد أن نتوقف قليلا، عند نقطة انتماء فرانك اليهودي. فقد كان يشغل منصب رئيس فرع جماعة بناى بريت اليهودية في المدينة. لابد من أن نعرف كذلك، على وجه الدقة، موقف الجنوب الأميركي من اليهود. وقد حدد الجنوب الأمريكي التضامن على أساس عرقي: أبيض في مقابل أسود، على عكس الشمال الذي عرفه على أساس عرقي، أو اثني ديني: بروتستانى أبيض أنجلو ــ ساكسوني في مقابل كاثوليكي أبيض من أصل إيطالي أو أيرلندي، أو كاثوليكي اسباني، أو كاثوليكي أو بروتستانتي أسود؛ وكل هذا في مقابل يهودي بطبيعة الحال (وبالتالي يكون اليهودي الأسود في أسفل الدرك). ومن الواضح، أن التعريف الجنوبي لم يستبعد اليهود، وإنما صنفهم على أنهم بيض، تماماً كما يحدث في جنوب أفريقيا. وقد سمح لهم هذا التصنيف بدرجة عالية من الاندماج والحراك الاجتماعي؛ وأصبحوا جزءاً عضوياً من المجتمع؛ وكانوا أعضاء في النخبة الحاكمة، وامتلكوا العبيد وتاجروا بهم. فلم يكن هناك مقولة مستقلة لليهودي في الوجدان الجنوبي التقليدي.

وقد أشرنا آنفاً إلى أن فرانك كان رمزاً للقوة الغازية الشمالية. ويمكن أن نضيف، هنا، أنه مع التحولات التي أدخلت إلى الجنوب اكتسبت كلمة "يهودي" مدلولاً جديداً. فأعضاء الجماعة اليهودية في جورجيا لم يكونوا يهود الجنوب التقليديين، وإنما كانوا وافدين، كانوا عنصراً غريباً جديداً، له طابع اثني وظيفي مميز، ويهود أتلانتا، في عام 1910، كانوا يشكلون أكبر جماعة من المهاجرين الأجانب، إذ بلغ عددهم 1342 أي 25 بالمئة من مجموع كل الأجانب. وعلى الرغم من أن نسبتهم لم تتجاوز واحداً بالمئة من عدد السكان، إلا أنهم كانوا يشكلون جماعة وظيفية حققت بروزاً مشيناً. فاليهود

المهاجرون كانوا يمتلكون معظم الحانات ومحلات الرهونات وبيوت الدعارة (وهذا جزء من ميراثهم الاقتصادي الأوروبي). وكان زبائنهم، أساساً، من الزنوج. وقيل: أن بيوت الدعارة التي امتلكها اليهود، كانت تزينها صور نساء بيض تثير شهوة الزنوج، الذين كانوا يحتسون الخمر في الحانات اليهودية "وينطلقون بعدها كالوحوش"، وهذه صورة إدراكية عنصرية؛ ولكنها، مع هذا، ربطت الجرائم الجنسية في ذهن سكان أتلانتا باليهود. وكان فرانك، نفسه، مشهوراً بمغازلة العاملات وملاحقتهن. وقيل إن مارى فيغان، نفسها، شكت إلى صديقاتها من محاولات فرانك الإباحية. وقد تكون هذه الاتهامات باطلة تماماً؛ قد يكون سلوك فرانك "الإباحي" ليس سوى سلوك أي شخص من مجتمع حضري مفتوح يتصرف بحرية زائدة في مجتمع مغلق أو قيمه مغلقة، فتفسر كل حركاته بشكل مبالغ فيه، قد يكون هذا هو الوضع، ولكن المهم إدراك الناس له، ولسلوكه، خاصة وأن اشتغال اليهود بالمهن المشينة عزز هذا الإدراك.

إلى جانب كل هذه الخلفية الاجتماعية، والتاريخية، والثقافية، ثمة جانب إحصائي هام، فالدراسات الصهيونية لا تكف عن الإشارة إلى قضية فرانك، و إلى الظلم الذي حاق به، نتيجة اختطافه من السجن وشنقه، بعد أن خفف الحاكم الحكم عليه. ولكن هذه الدراسات لا تذكر هذه الحقائق:

1ــ أن احترام القانون لم يكن سمة سائدة في المجتمع. فعلى سبيل المثال، لجأت الشرطة، ذات مرة، إلى القبض على كل الذكور القادرين، لأن أتلانتا كانت تعاني من نقص في العمالة. كما أنه من المعروف أنه في عام 1909، اتهمت الشرطة بضرب أحد الزنوج ضرباً أفضي به إلى الموت، وأنهم قاموا بتقييد امرأة بيضاء إلى الحائط حتى زهقت روحها.

2ــ اندلعت في عام 1906، اضطرابات بين السكان البيض، الذين هاجموا حي السود لعدة أيام واشتبكوا معهم، فقتلوا عشرة زنوج وجرحوا ستين (بينا قتل من بينهم رجلان وجرح عشرة). واضطرت المدينة إلى استدعاء الحرس الوطني، وقيل إن الاضطرابات اندلعت نتيجة تقارير مثيرة نشرت في الصحف عن هجوم السود على النساء البيضاوات.

3ــ كانت المدينة محتاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة، وبالتالي إلى مزيد من المهاجرين، ولكن كلما زاد عدد المهاجرين كانت تزداد نسبة غضب السكان المحليين المقتلعين. ففي عام 1891، تم اختطاف، وشنق، أحد عشر مهاجراً إيطالياً، وفي عام 1899، اختطف خمسة آخرون. وفي عام 1900، اختفي ثلاثة آخرون تحت ظروف غامضة.

4ــ شهدت الفترة من 1889 إلى 1918 ما مجموعة 2500 حالة "لينشنج" أخرى (اختطاف مساجين وشنقهم ضد سلطة القانون)، وكان معظم ضحايا الاختطاف من السود، كما تم اختطاف قلة من أعضاء الأقليات الأخرى. ولكن لم يكن هناك سوى حالة واحدة فقط اختطف فيها يهودي، وشنق، وهي حالة ليوفرانك. وهكذا تحول الاستثناء إلى قاعدة، وتحول الخاص إلى عام، وتحولت الواقعة العابرة إلى رمز عالمي مركزي! وقد صدر عفو عن فرانك في عام 1968 وبرىء اسمه.

بين حشد الحقائق ومعرفة الحقيقة

فيما سبق، لم نحاول أن نفرض مني محدداً على الحقائق بدلاً من المعني الصهيوني العنصري اللإنساني، وإنما وضعناها في سياقها التاريخي الاجتماعي الإنساني العريض، فظهر معناها الإنساني الكامن لوحده، وتكشف لنا أن الضحايا اليهود لم يسقطوا بسبب يهوديتهم المطلقة ولسبب غير مفهوم أو ميتافيزيقى، وإنما سقطوا نتيجة لمركب من الأسباب الاجتماعية التاريخية المفهومة، وأن يهوديتهم لم

تكن سوى عنصر واحد ضمن عناصر كثرة، بل لم تكن يهوديتهم ذاتها سوى بلورة لعناصر أكثر عمقاً: إذ لا يظهر اليهودي كيهودي، وإنما كمراب (تهمة الدم) أو كألزاسي أو عميل ألماني أو أجنبي (دريفوس) أو شمالي علماني جامعي صاحب مصنع (ليوفرانك)، وأن الهجوم الذي كان يتم على اليهود ليس مقصوراً عليهم، وإنما هو هجوم موجه ضد كل القوى المماثلة في المجتمع.

وقد ذكرنا كل هذا لا من قبيل تبرير الهجوم على اليهود، أو غيرهم م أعضاء الأقليات، فهذا مما لا يسمح به الإسلام (على عكس ما قد يتصوره البعض، وعلى عكس ما يشاع) ولا يمكن تبريره، وإنما ذكرناه من قبيل محاولة فهم الوقائع واستخلاص معناها الحقيقي. ويلاحظ أننا بهذه الطريقة نسقط عن اليهودي عجائبيته وإعجازه وفرادته (التي يصر عليها الصهاينة والمعادون لليهود)، ونستعيد له إنسانيته. وإذا ما أدركنا المغزى الإنساني الكامن في واقعة ما، يكون الحزن من أجل الضحية حزناً إنسانياً لا يوظف في خدمة عقيدة عنصرية استيطانية، إذ أنه إذا سقط اليهودي (شأنه شأن أعضاء الأقليات والجماعات الأخرى) ضحية العنف في مجتمعه، يصبح الحل هو أن ينضم إلى الجماعات التي تدافع عن حقوق الإنسان (من أعضاء الأقليات الأخرى وأعضاء الأغلبية)، وأن يناضل من أجل حقوقه داخل مجتمعه. وتصبح القضية هي كيف ندافع عن حقوق اليهود السياسية والمدنية، والدينية (وحقوق غيرهم من الأقليات) داخل وطنهم، لا أن نطالب بتهجيرهم (أو خروجهم) كما يفعل العنصريون من الصهاينة وأعداء اليهود.

وثمة قضية أخرى تتجاوز اليهود والصهاينة والمعادين لليهود، إذ إنها قضية معرفية ذات طابع نظري، وهي علاقة الحقيقة بالحقائق. فنحن كثيراً ما نتصور أن الحقائق هي الحقيقة. ولذا، فنحن نحاول أن نكون "موضوعيين في رصد الحقائق" ولكن الحقائق التي أتي بها الصهاينة كانت، كلها؛ حقائق موضوعية، ووقائع ثابتة، حدثت تحت سمع الناس وبصرهم.

فالصهاينة، في أغلب الأحوال، **لا يختلقون الحقائق**، وإنما يجتزئونها وحسب، ومن خلال اجتزائها ونزعها من سياقها يفرضون عليه المعني الذي يريدون. وحيث إنه من المستحيل أن يرصد الإنسان كل الوقائع الخاصة بحدث ما، يصبح الاختيار مسألة حتمية، ويصبح أساس اختيار الحقائق، لا الحقائق ذاته، هو ما يشكل مدى صدقها من زيفها، فالصدق والكذب ليسا كامنين في الحقائق الموضوعية ذاتها (هل هي صادقة أم كاذبة؟)، وإنما في طريقة تناولها، وفي القرار الخاص بما يضم، ويستبعد، منها. ومن هنا قولي إن **الحقائق شيء والحقيقة شيء آخر (والحق شيء ثالث)**.

فالحقائق شيء مادي صرف يوجد في الواقع على هيئة تفاصيل متناثرة؛

أما الحقيقة فهي لا توجد في الواقع، وإنما يقوم العقل بتجريدها واستخلاصها بعمليات عقلية، حتى نصل إلى هذه الفكرة الكلية التي تفسر أكثر قدر ممكن من الحقائق المتناثرة

(أما الحق، فهو ينتمي إلى عالم المثل والإيمان، وهو يشكل المنظور الأخلاقي المطلق الذي يحاكم الإنسان منه كلاً من الحقائق المادية والحقيقة الفكرية العقلية).

الفصل السابع

أزمة الصهيونية

ثمة انطباع عام في الأوساط العربية مفاده أن الصهيونية هي مشروع ناجح تماماً، أسس الدولة وحقق كل ما يصبو إليه من أهداف وغايات، ولا يمكن إنكار أن في هذا القول شيئاً من الحقيقة، فانتصارات الدولة الصهيونية العسكرية ووجود أربعة ملايين مستوطن صهيوني في وسط العالم العربي هو إنجاز استعماري لا ريب فيه، ويعود هذا النجاح لعدة أسباب من بينها ما يلي:

1ــ اكتشف الصهاينة الإمبريالية الغربية بحسبانها الآلية الأساسية في القرن التاسع عشر لتنفيذ أي مشروع خارج أوربا، فكل من كان لديه مشروع يرغب في تحقيقه ما كان عليه إلا أن يتبنى الحل الداروينى السحري وهو الحل الإمبريالي. فالإمبرالية الغربية كانت هي القوة العظمي التي كانت تقتسم العالم وتصدر له كل المشاكل الغربية وكل فواتير التقدم الغربية، وتبطش بمن يقف في طريقها. فالسلع الكاسدة كانت تصدر إلى أسواق الشرق، والمواد الخام الرخيصة كان يتم الحصول عليها من أفريقيا وآسيا عن طريق تحويلها إلى اقتصاديات متخصصة ملحقة بالاقتصاد الغربي وتحويل شعوبها إلى يد عاملة رخيصة. أما الفاشلون اجتماعياً (اللصوص ــ المجرمون ــ من لم يحققوا حراكاً اجتماعياً داخل الاقتصاد الرأسمالي) فكانوا يصدرون، تماماً مثل السلع الكاسدة، إلى المستعمرات في الشرق، خاصة الجيوب الاستيطانية. وقد اكتشف هرتزل عبث المحاولات الصهيونية السابقة عليه، الرامية إلى تأسيس الوطن القومي اليهودي من خلال (الجهود اليهودية الذاتية) ولذا بدلاً من التوجه لأثرياء اليهود مثل روتشيلد، الملونير اليهودي، أو الحاخامات اليهود (بحسبانهم القيادة التقليدية للجماعات اليهودية)، توجه مباشرة إلى الاستعمار الإنجليزي.

2ــ حرص الصهاينة قبل وبعد تأسيس الدولة أن يحتفظوا بدورهم كقاعدة للاستعمار الغربي، وكقلعة أمامية له، تدافع عن أمنه ومصالحه. وقد ضمن لها هذا الوضع الدعم الغربي، العسكري والسياسي والاقتصادي، الدائم.

3ــ الأيديولوجية الصهيونية أيديولوجية حديثة بمعني الكلمة، داروينية حتى النخاع، لا تؤمن إلا بقيم الصراع والبقاء المادي للأقوى. وهي بالتالي أيديولوجية ذات جاذبية خاصة تلاقي هوى عند إنسان أوربا الحديث، داروينى المنزع والاتجاه. ومع هذا، ورغم داروينيتها الواضحة نجحت الصهيونية في أن تخبيء هذا الجوهر المادي الحديث من خلال ديباجات دينية قوية ذات طابع رومانسي جذاب. وقد زاد هذا من مقدرتها التعبوية ولكنه في ذات الوقت كان مصدر ضعف، مما أدى إلى أزمة الصهيونية (كما سنبين فيما بعد).

4ــ الصهيونية أيديولوجية ذات مقدرة تعبوية عالية لأنها لجأت إلى صيغ مراوغة من الصعب كشفها إلا بعد عملية اختبار تستغرق وقتا طويلاً. فقد ادعت الصهيونية أن اليهود شعب واحد وهو ادعاء ليس له ما يسانده في الواقع. ومع هذا طرح هذا الشعار، وكأنه حقيقة قائمة، وصدقه الكثيرون بما في ذلك أعضاء الجماعات اليهودية. كما أنها ادعت أنها حركة يهودية وليست استعمارية استيطانية إحلالية، وهو ادعاء وجد صدى لدى الكثيرين في العالم الغربي، بين اليهود وغيرهم، فهذا الادعاء يبرر عمليات السفك والبطش ويريح ضمير الإنسان الغربي.

5ــ تظهر الصيغة المراوغة للصهيونية فيما نسميه (قضية الصهيونيتين). ففي تصورنا لا توجد صهيونية واحدة وإنما صهيونيتان: صهيونية استيطانية وأخرى توطينية. والصهيونية الاستيطانية (كما يدل اسمها) هي صهيونية اليهودي الذي يهاجر إلى فلسطين ويستوطن فيها، أما الصهيوني التوطيني فهو الذي لا يهاجر أبداً ويكتفي بتمويل عملية الاستيطان ودعمها. والصهيونية الاستيطانية كانت دائماً من شرق أوربا أما التوطينية فتأتي أساساً من غربها (والولايات المتحدة وأحياناً وسط أوربا)، وهذا التناقض حاد وعميق. وقد سخر دعاة الصهيونية الاستيطانية من الصهيونية التوطينية سماها "صهيونية الصالونات". ودائماً ما يحدث اشتباك بين الفريقين داخل المؤتمرات الصهيونية. ومع هذا عرفت الصهيونية وعرف الصهاينة أن يتعايشوا مع التناقض وأن يتقبلوا الصهيونيتين. ومؤخراً كف الصهاينة عن المطالبة بـ "نفي الدياسبورا" أي تصفيتها، كما كانوا يفعلون في الماضي، كما كفوا عن المطالبة بـ "غزو الجماعات" أي توظيفها لصالح المستوطن الصهيوني. وأصبح الحديث الآن عن ـ "الدياسبورا الالكترونية" و"الصهيونية التقنية" و"الصهيونية الاقتصادية" (ويهودية "دفتر الشيكات") أي أن يساهم أعضاء الجماعات اليهودية بأموالهم ومعارفهم ونفوذهم في دعم المستوطن الصهيوني، دون أن يستوطنوا فيه بالضرورة.

بذور الأزمة

ولكن إلى جانب مواطن القوة، توجد مواطن ضعف نذكر منها ما يلي:

1ــ يمكن القول بأن كل أيديولوجية تطرح مثالية ما، ولكن المثالية لابد أن تختلف عن الأكذوبة، بمعني أن الرؤية المثالية الحقة قد لا تكون موجودة فعلاً في الواقع، ولكنها موجودة فعلاً في الواقع، ولكنها موجودة بالقوة، عناصرها هناك تود أن تتحقق من خلال العمل الإنساني (ويمكن أن نضرب مثلاً على ذلك بالرؤية القومية العربية، فهي تطرح فكرة الوحدة وأن العرب شعب واحد، وهي ولا شك رؤية مثالية، فالعرب مقسمون. ولكن الرؤية المثالية لها جذورها القومية في الواقع: اللغة الواحدة ـ الذاكرة التاريخية الواحدة ـ الامتداد الجغرافي المتصل ـ التكامل الاقتصادي الممكن).

أما الصهيونية فهي تستند إلى أكذوبة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) تفصلها هوة سحيقة واسعة عن الواقع، حتى يمكن القول بأن الأيديولوجية الصهيونية عبارة عن ديباجة قوية لم تنبع من واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ولا من واقع الفلسطينيين في بلادهم، وإنما رؤية ولدت على صفحات كتب مفكرين لم يدرسوا الواقع بما فيه الكفاية ولم يعرفوا إلا اقل القليل عن يهود العالم وعن فلسطين.

2ــ لكل هذا نجد أن الفكر الصهيوني فكر اختزالي يتجاهل معطيات الواقع سواء كان الأمر يتعلق بواقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم أم واقع الفلسطينيين العرب. وتتضح هذه الاختزالية في إنكار التاريخ والتفكير في وضع نهاية له: تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية والتاريخ العربي في فلسطين، كما يتضح في إنكار الجغرافيا. ففلسطين تصبح إسرائيل، وهي بلد لا حدود لها، إذ أن حدودها داخل مفهوم إرتس يسرائيل الديني.

3ــ لكل هذا نجد أن العقيدة الصهيونية أيديولوجية فاشية، نسق عضوي مغلق يخلع القداسة على الأرض (أرض الميعاد) والشعب (الشعب المختار) وينكر الآخر (الصراع مع الأغيار والعقلية الجيتوية). ومثل هذه الأيديولوجيات تكسب حاملها قوة ومناعة وصلابة، ولكنها في الوقت نفسه تتسم

بالجمود والانغلاق. ومن ثم فكثير من التناقضات الكامنة داخل الأيديولوجية أو في واقعها حينما تتبدى في الواقع، تظهر بشكل عنيف إن لم يكن فجائياً.

4ــ تستند الأيديولوجية الصهيونية إلى فكرة الهوية و إلى تعريف عضوي ضيق لها، ولذا فإن أية تحديات لهذه الفكرة تسبب شرخا عميقاً في المجتمع.

إن عناصر الأزمة كامنة في الأيديولوجية الصهيونية، وقد ازدادت تفاقماً حين بدأ تطبيقها على الواقع. ويمكن القول إن أزمة الصهيونية إن هي إلا نتيجة مباشرة للادعاءات الأيديولوجية الصهيونية المبدئية. وقد أدت الأزمة إلى انفراط العقد الاجتماعي الصهيوني أو على الأقل تآكله.فقد كان هناك اتفاق على المقولات الأساسية، مثل أن اليهود شعب واحد (يضم الدينيين والإشكناز والسفارد وغيرهم)، وهو شعب يطمح للعودة إلى أرضه للاستيطان فيها، وأن الصهيونية ستنهي حالة النفي وستقوم بتطبيع اليهود. لقد فشلت الصهيونية في كل هذا، فاليهودي (هذا المكون الأساسي لهذا الشعب اليهودي) لم يعرف بطريقة ترضي كل الأطراف، وهو شعب يرفض العودة لوطنه "القومي"، الأمر الذي يخلق أزمة سكانية استيطانية. ولهذا، لم يعد هناك اتفاق على المكونات الأساسية للصهيونية وأهدافها المبدئية، فالرؤية ليس لها ما يساندها في الواقع، والواقع صلب لا يود أن يخضع للرؤية.

وقد ترجم هذا التآكل نفسه إلى عدم اكتراث بالمشروع الصهيوني الذي ترجم نفسه بدوره إلى عدم الإيمان بالقيم الصهيونية (الريادية) المبنية على التقشف وتأجيل الإشباع. وبدلاً من ذلك، ظهر السعار الاستهلاكي والنزوع نحو الأمركة والعولمة والخصخصة، وهي حالة لا تصيب الصهاينة وحدهم وإنما تصيب أي مجتمع يفتقر إلى الاتجاه و إلى المشروع الحضاري ولا يحل مشكلة المعني. ولكن رغم كل هذا التآكل يظل هناك إجماع صهيوني لم يتآكل وهو رفض الاعتراف بالفلسطينيين وحقهم في هذه الأرض التي تم اغتصابها.

ويجب أن نؤكد على أنه بوسع المجتمعات الإنسانية أن تعيش في حالة أزمة مستمرة لعشرات السنين دون أن (تنهار من الداخل)، إن لم توجه لها ضربة من الخارج، والتجمع الصهيوني ليس استثناء من هذه القاعدة، وخصوصاً أن كميات المساعدات التي تصب فيه من الولايات المتحدة تزيد عن ثمانية بلايين دولار لمجموع عدد السكان الذي يبلغ عددهم حوالي أربعة ملايين، الأمر الذي يجعل التجمع الإسرائيلي (الاستيطان الوظيفي) من أكثر المجتمعات تلقياً للمساعدات الخارجية بالنسبة لعدد السكان. فالتجمع الصهيوني لا يحوى مكونات بقائه واستمراره داخله، فهو يستمدها من دولة عظمى تكفله وترعاه.

ويمكننا القول بأن عناصر الأزمة الصهيونية متشابكة تماماً، فمشكلة الهوية مرتبطة بالأزمة السكانية (الديموجرافية) وكلاهما مرتبط بأزمة الهجرة والاستيطان وبقضية تطبيع الشخصية اليهودية. ومع هذا سنعرض لهذه العناصر كما لو كنت منفصلة الواحدة عن الأخرى، ولكن عملية الفصل هذه هي ضرورة تحليلية وحسب.

أزمة الهوية

1ــ هوية المستوطنين:

حينما أسست الدولة الصهيونية كان الجميع يظن ــ حسب التعريف الصهيوني ــ أن ثمة تاريخاً يهودياً واحداً وهوية يهودية واحدة، ولكن حينما توافد أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين المحتلة اكتشفوا

ما أشرنا إليه في بداية هذه الدراسة وهو أن العناصر غير المشتركة بينهم أهم بكثير من العناصر المشتركة. فانقسمت الدولة على أساس عرقي إلى بيض وسود، وعلى أساس إثنى إلى سفارد وأشكناز، وعلى أساس ديني إلى علمانيين ودينيين وانقسم الدينيون بدورهم إلى أرثوذكس من جهة ومحافظين وإصلاحيين من جهة أخرى. وقد فشلت الدولة الصهيونية حتى الآن في تعريف اليهودي. وهو فشل له أهمية خاصة في السياق الصهيوني باعتبار أن إسرائيل تدعي أنها دولة يهودية أو دولة اليهود.

2ــ إشكالية الشخصية اليهودية:

كانت الصهيونية تزعم أنها ستشفي اليهود من أمراض المنفي (الهامشية ــ عدم الاشتغال بالوظائف الإنتاجية ــ الاشتغال بالمضاربات ــ عدم الانتماء) بنقلهم إلى فلسطين حيث سيقوم اليهودي بتخليص الأرض الفلسطينية من أيدي العرب بأن يستولي عليها ويقوم بزراعتها بنفسه وبالعمل في الوظائف الإنتاجية المختلفة، وهو بذلك يخلص الأرض ويشفي ذاته من أمراض المنفي في الوقت نفسه. ولكن بعد ما يزيد عن مائة عام من لاستيطان الصهيوني وبعد أكثر من أربعين عاماً من تأسيس الدولة الصهيونية يلاحظ أن الإسرائيليين لا يزالون يعانون أمراض الدياسبورا (المنفي)، فهم يعشقون التجارة والمضاربات في البورصة، كما أنهم انسحبوا من القطاعات الاقتصادية الإنتاجية مثل البناء (الذي يشغله العرب الآن). ونلاحظ أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع يضرب الفساد في أطنانه (المخدرات ــ الإباحية) ويدرك الإسرائيليون تماماً أن دولتهم دولة وظيفية تعيش على الدعم الأمني والمالي الأمريكي السخي المستمر، وأنهم بذلك لا يختلفون كثيراً عن يهود الجيتو الذين كانوا يعملون لصالح الملك أو النخبة الحاكمة نظير ما يحققونه من أرباح ونظير الحماية التي يزودهم بها راعيهم، فكأن الدولة الوظيفية هي ذاتها مصابة بأمراض النفي من طفيلية وهامشية.

وتسود إسرائيل عقلية استهلاكية عقلية "روش كتان" أي الرأس الصغير، وهي تشير إلى الإنسان ذي الرأس الصغير والمعدة الكبيرة. وقد تصاعدت حدة هذا الاتجاه بعد موجة الهجرة السوفيتية الأخيرة فقد أتت بالعديد من المهاجرين الصهاينة المرتزقة، الذين ليس لهم أي انتماء أيديولوجي وغير ملتزمين إلا برفع مستواهم المعيشي، وقد أصبح لهؤلاء عدة ممثلين في الكنيست وممثلين في الوزارة الإسرائيلية، ولا يمكن لكثير من الوزارات أن تستمر في السلطة دون دعمهم وموافقتهم، وينعكس موقف المرتزقة هذا على جانبين مهمين من جوانب الحياة في إسرائيل: الاستيطان والخدمة العسكرية.

3ــ هوية الدولة اليهودية: منظور توطيني:

يطرح أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الكثير من الأسئلة بشأن هوية الدولة اليهودية، ومدى عمق ــ أو حتى حقيقة ــ انتمائها لليهودية، سواء بالمعني الديني أم الإثني، فالمتدينون يتساءلون: كيف يمكن أن تصنف الدولة الصهيونية على أنها دولة يهودية وهي من أكثر الدول إباحية في العالم ولا يقيم سكانها الشعائر الدينية اليهودية؟ ويتساءل اليهود المهتمون بإثنيتهم موروثهم اليهودي السؤال نفسه: كيف يمكن أن نسمي الصهيونية التي تتزايد فيها معدلات الأمركة والعولمة بخطي متسارعة دولة يهودية؟ فبدلاً من أن تكون صهيون الجديدة أصبحت (ماك إسرائيل) الجديدة (نسبة إلى ماكدونالد). ويتساءل اليهود من ذوى الاتجاهات الثورية: هل يمكن أن نسمي دولة تقوم بالتجسس لحساب الولايات المتحدة وتزويد النظم الفاشية في أمريكا اللاتينية بالأسلحة وكانت تتعاون مع نظام الأبارتهايد (التفرقة اللونية) في جنوب أفريقيا وحاولت قمع الانتفاضة بكل أنواع الإرهاب المتاحة، ولا

تزال تنكر على الفلسطينيين حق تقرير المصير وتستعمر أرضهم، كيف يمكن أن نسمي مثل هذه الدولة (يهودية)؟

4ــ هوية الدولة اليهودية: منظور استيطاني:

وقد طرحت القضية نفسها داخل إسرائيل ولكن على مستوى آخر وبشكل مختلف. فمن المعروف أن الاستعمار الصهيوني قد مر بثلاث مراحل: المرحلة الأولي هي المرحلة الإحلالية التي وصلت إلى ذروتها عام 1948 مع إعلان الدولة وطرد الفلسطينيين ووصول آلاف المهاجرين للاستيطان في أرض فلسطين. وهنا بدأت المرحلة الثانية، مرحلة الدولة الصهيونية "اليهودية الخالصة"، ثم انتهت هذه المرحلة عام 1967، وبدأت المرحلة الثالثة حين قامت إسرائيل بضم الضفة الغربية والقطاع، وهي مناطق مأهولة بالسكان العرب الذين لم يتمكن الاستعمار الصهيوني من طردهم فتحول الاستعمار الاستيطاني الإحلالي (على طريقة أمريكا الشمالية حيث يباد السكان الأصليون أو يطردون) إلى استعمار استيطاني مبني على التفرقة اللونية (على طريقة جنوب أفريقيا حيث يتم الاحتفاظ بالأرض وبمن عليها من سكان يتم تحويلهم إلى مصدر للعمالة الرخيصة). وقد أتاح النظام العالمي الجديد فرصاً جديدة للنظام الاستيطاني الصهيوني بحيث أصبح بوسعه أن يتجاوز نطاق فلسطين المحتلة ليتغلغل في البلاد العربية وليحول السوق العربية إلى سوق شرق أوسطية يلعب هو فيها دور الوسيط الأساسي بين العرب والغرب، بل وبين كل دولة عربية وأخرى، ويصبح هو القناة التي توزع من خلالها رؤوس الأموال الخارجية على المنطقة، والهدف النهائي هو أن يقوم التجمع الصهيوني بتحديد شكل المنطقة وإدارتها بما يتناسب مع مصلحته والمصالح الغربية.

وتكمن المفارقة الكبرى في أن توسع الجيب الاستيطاني يتطلب المزيد من المستوطنين، أي المادة البشرية المطلوبة للاستيطان والقتال حتى يمكنه من الاضطلاع بوظيفته التي تشكل أساس كيانه. ولكن المصادر البشرية للهجرة اليهودية قد جفت إلى حد كبير (بسبب تناقص أعداد اليهود في العالم لانخفاض نسبة الخصوبة بينهم. وقد أفرغت الهجرة اليهودية السوفيتية الأخيرة المصدر الأخير للمادة البشرية الاستيطانية في شرق أوربا، فيهود الولايات المتحدة وغرب أوربا هم صهاينة توطينيون ويهيجون دائماً من أجل المستوطن الصهيوني ولا يهاجرون إليه قط).

وتشاهد الدولة الصهيونية عدداً كبيراً من النازحين، أي المستوطنين الصهاينة ممن يهاجرون من فلسطين المحتلة إلى الولايات المتحدة أو إلى أي بلد آخر، ومما يفاقم الأزمة تزايد السكان العرب.

كل هذا يجعل التوسع الاستيطاني والاقتصادي أمراً عسيراً، وقد ظهر في إسرائيل صراع بين ما يسمى (الصهيونية الديموجرافية أو السكانية) و (صهيونية الأراضي). والاتجاه الأول الديموجرافي يرى أن الاحتفاظ بالأراضة المأهولة بالسكان العرب ليس من الحكمة في شيء، فهم بتكاثرهم سيفوقون الصهاينة عدداً ويهددون الطابع اليهودي للدولة الصهيونية، بل ويرى هؤلاء أن تزايد عدد العرب يهدد الديمقراطية الإسرائيلية ذاتها، إذ من الصعب على دولة ديمقراطية أن تضم أقلية كبيرة (قد تصبح أغلبية) وتنكر عليها حق الاشتراك في صنع القرار. ولذا يطالب دعاة هذا الاتجاه بتسليم المناطق المأهولة للعرب (كما حدث مع قطاع غزة) و الاحتفاظ بالنقط الإستراتيجية لضمان الأمن الإسرائيلي الأمر الذي سيوفر لإسرائيل الجو الملائم لتطوير اقتصادها بطريقة تسمح لها بقيادة منطقة الشرق الأوسط، أما الاتجاه الثاني (صهيونية الأراضي) فيذهب إلى أنه لا يمكن الانسحاب من أي من الأراضي التي احتلها الصهاينة (فهي أرض الميعاد المقدسة) وأنه يمكن الاحتفاظ بها وبمن عليها من

السكان دون التخلي بالضرورة عن الطابع اليهودي للدولة (فالقمع المستمر للعرب سيضمن هدوءهم وهدوء المناطق كما تسمى الأراضي المحتلة في الخطاب الصهيوني). ومما يجدر ملاحظته أن الاتجاه الأول يوصف بأنه (معتدل) بينما يوصف الثاني بأنه (متطرف) وحقيقة الأمر أنه لا يوجد فارق جوهري بينهما، فكلاهما يصدر عن الإجماع الصهيوني، ولا يختلفان إلا فيما يتصل بطريقة التطبيق ونطاق التوسع، وترى الولايات المتحدة (رائدة النظام العالمي الجديد) أن مدرسة الصهيونية السكانية هي الأقرب لأهدافها، فالنظام العالمي الجديد يفضل عدم المواجهة المباشرة مع الشعوب المستغلة، وصهيونية الأراضي تؤدي إلى مثل هذه المواجهة.

تصاعد معدلات التوجه نحو اللذة

نظراً للتوجه نحو اللذة في التجمع الصهيوني نجد أن كثيراً من المفاهيم الصهيونية قد تآكل وتراجع كما يتضح في الموقف من الاستيطان ومن الخدمة العسكرية:

1ــ تساقط المفهوم القديم للاستيطان:

المفهوم القديم للمستوطن الصهيوني باعتباره رائداً يمسك المحراث بيد والبندقية بالأخرى قد تآكل، وظهر نوع جديد من المستوطنين الذين يبحثون عن الحراك الاجتماعي، وعن رفع مستوى معيشتهم، ولذا يلاحظ أن المستوطنات الجديدة في الضفة الغربية مختلفة عن المستوطنات القديمة، فلا يوجد فيها أي مظهر من مظاهر التقشف، وإنما توجد فيها منازل فاخرة وحمامات سباحة وكل أشكال الرفاهية، والدعوة إلى الاستيطان فيها لا تأخذ شكل شعارات دينية أو حتى شبه دينية ولا أيديولوجية (أو حتى شبه أيديولوجية) وإنما هي دعوة سافرة للاستهلاك، فأحد الإعلانات عن أماكن للسكني في إحدى المستوطنات في الضفة الغربية يتحدث عن فيلا واسعة، في موقع جميل، بنصف ثمن الفيلات المماثلة داخل حدود عام 1967 ولكنها مع هذا تقع على بعد ثلاثين دقيقة من وسط القدس ونتانيا وتل أبيب؛ أي أنه أوكازيون واستيطان في نفس الوقت، أو استيطان بالتقسيط المريح.

وهذه البيوت الاستيطانية الفارهة لا يقوم المستوطنون بحراستها إذ يتولى الجيش الإسرائيلي هذه المهمة بالنيابة عنهم، ولذا بدلاً من أن تكون المستوطنات هي المواقع العسكرية الأمامية للجيش الاستيطاني الصهيونى أصبحت تشكل عبئاً عسكرياً عليه. ولذا فقد أطلقنا على هذا النوع من الاستيطان (الاستيطان مكيف الهواء) وهو يعكس واقع الحياة في إسرائيل أكثر من الشعارات الصهيونية الكاذبة التي تطلقها أبواق الصهيونية (والتي يصدقها بعض العرب).

ومما فاقم الوضع وصول ما يقرب من مليون من الاتحاد السوفيتي ليس لديهم انتماء يهودي (ديني أو إثنى) ولا حتى انتماء أيديولوجي صهيوني، فهؤلاء قد هاجروا لأسباب نفعية واضحة ولذا نحتنا مصطلح "الصهيونية النفعية" أو صهيونية المرتزقة لنصف دوافعهم ولو سنحت لهم الفرصة للهجرة إلى الولايات المتحدة لفعلوا، وقد كون هؤلاء حزباً سياسياً ممثلاً في الوزارة الإسرائيلية، وبرنامجه السياسي مكرس تماماً لخدمة المهاجرين السوفيت دون أية توجهات أيديولوجية.

2ــ الخدمة العسكرية:

التجمع الصهيوني، كما نؤكد تماماً تجمع استيطاني، وهو ــ شأنه شانه كل التجمعات الاستيطانية ــ تجمع عسكرة، إذ أن عليه أن يقمع دائماً، وبشكل مستمر، السكان الأصليين، ورفضهم للنظم الواقع

عليهم، ومن ثم تكون الخدمة العسكرية أهم أعمال المواطنة، وكما قال أحد الشعراء الإسرائيليين: (إن كل الشعوب لها جيش ما عدا إسرائيل فإن الجيش له شعب).

ولكن لوحظ في الآونة الأخيرة أن المستوطنين الصهاينة قد بدأوا ينصرفون عن الخدمة العسكرية بأعداد متزايدة، فهناك ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية التي لم تكن معروفة من قبل وفي إحدى استطلاعات الرأي صرح ثلث الشباب الإسرائيليين أنه إن أتيحت لهم الفرصة أن يتحاشوا الخدمة العسكرية الإجبارية (التي تستغرق ثلاث سنوات) لفعلوا ذلك، ويعتمد الجيش الإسرائيلي على نظام الاحتياط فيقوم باستدعاء جنود الاحتياط (الذين بلغ عددهم عام 1996 حوالي 429,000) مرة كل عام لمدة ستة أسابيع لإعادة تدريبهم، وقد لوحظ أن حوالي الثلث يتغيبون، وفي أثناء الصدام الذي وقع بين الجيش الإسرائيلي وسكان نابلس في سبتمبر 1996 استدعت إحدى فرق الاحتياط الجنود التابعين لها والبالغ عددهم 340، فلم يحضر سوى 60، ولم يبق منهم سوى ثلاثين، وقد رفض أحدهم الذهاب للضفة الغربية، والأهم من هذا كله أن هناك قبولاً اجتماعياً لهذا الموقف، وهو أمر جديد كل الجدة في التجمع الصهيوني الذي كانت الخدمة العسكرية فيه (حتى نهاية الستينيات) تعد الشرف الأكبر الذي يمكن للمواطن/ المستوطن الحصول عليه.

وتعود ظاهرة الانصراف عن الخدمة العسكرية لعدة عوامل من أهمها التوجه نحو اللذة وضمور الدافع الأيديولوجي الصهيوني عند المستوطنين. ولكن مما عمق الاتجاه نحو الفرار من الخدمة العسكرية إحساس الإسرائيليين بما سماه المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون (عقم الانتصار) أي أن إسرائيل حققت انتصارات عسكرية كثيرة في الأعوام (48ـ56ـ67) ولكنها لم تنجح في إنهاء حالة الحرب المنهكة، وقد تبع هذا مجموعة من الضربات: حرب الاستنزاف ـ حرب عام 1973ـ الهزيمة في لبنان (المستنقع اللبناني، كما يسمونه)، ثم جاءت الانتفاضة المجيدة عام 1987، وعمليات حزب الله في الجنوب اللبناني (ومما لا شك فيه أن انتفاضة الأقصى ستصعد من هذا الاتجاه في صفوف الجنود والمجندين الإسرائيليين). ولعل أكبر شاهد على تراجع النزعة القتالية في التجمع الصهيوني وتصاعد معدلات التوجه نحو اللذة هو الضغط الشعبي المستمر على حكام إسرائيل أن ينسحبوا من لبنان بعد مقتل عدد من الجنود في أثناء الحرب ضد المقاومة اللبنانية، إلى أن انتهي الأمر بالجيش الإسرائيلي الذي كان يدعي أنه لا يقهر، بالانسحاب المذل في جنح الظلام.

اهتزاز مقولة (الوضع الراهن)

تستخدم عبارة (الوضع الراهن) للإشارة إلى الأمر الواقع الديني بين المستوطنين الصهاينة إبان حكم الانتداب. فعلي سبيل المثال، تتوقف المواصلات العامة يوم السبت، ولكن يمكن استخدام السيارات الخاصة أو التاكسيات، وتغلق الشوارع في الأحياء التي تقطنها أغلبية متدينة وتترك مفتوحة في الأحياء الأخرى. أما أمور الزواج والطلاق فيسيطر عليها المتدينون (وهو استمرار لنظام الملة العثماني والذي أبقت عليه سلطات الانتداب). وقد تم الاعتراف بالتعليم الديني المستقل، وهو ما يعني أن الدولة عليها أن تموله (وقد أصبح فيما بد هو العمود الفقري لتطور التطرف الصهيوني، ذي الديباجات الدينية). ولا تعرض أفلام سينمائية ابتداءً من يوم الجمعة مساءً، وإن كان يصرح بلعب كرة القدم يوم السبت (على أن تباع التذاكر في اليوم السابق). وقد أرسل بن جوريون عام 1947 (باعتباره

رئيس الوكالة اليهودية) خطاباً إلى زعماء أجودات إسرائيل وعد فيه بالحفاظ على الوضع الراهن. وقد تم أيضاً إعفاء طلبة المعاهد الدينية من الخدمة العسكرية.

والعقد الاجتماعي الصهيوني يستند إلى قبول (الوضع الراهن) باعتباره الإطار المرجعي لكل العناصر التي تقبل المشروع الصهيوني. والتفاهم العملي يمكن أن ينصرف إلى التفاصيل والفروع ولكنه غير قادر على حل المشاكل المبدئية، ولذا فالعقد الاجتماعي الذي يستند إليه المجتمع على يد صهاينة غير يهود لا يكترثون باليهود وينظرون إليهم من الخارج باعتبارهم مادة استيطانية. ثم انضم إليهم صهاينة يهود غير يهود (بمعني أنهم لا يتمسكون بالشعائر الدينية ويحاولون التخلص من أية خصوصية إثنية يهودية، حقيقية كانت أم وهمية) يشاركونهم عدم الاكتراث هذا ثم ظهر دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية الذين هودوا الصهيونية العالمية عن طريق إدخال مصطلحات الحلولية اليهودية العضوية عليها. ثم كان هناك الجيب الصغير من الصهاينة الإثنيين الدينيين، وقد افترض هؤلاء منذ البداية أن الدين هو القومية وأن القومية هي الدين.

وقد تعايش التياران جنباً إلى جنب: التيار الحلولي الديني (القومية كدين والدين كقومية)، والتيار الحلولي العلماني (القومية كدين)، وتقبلاً سياسة الوضع الراهن، وكان من الممكن أن يستمر التياران في التعايش إلى ما لا نهاية، فالخطاب الصهيوني المراوغ كان كفيلاً بذلك. ولكن قبول الوضع الراهن كان مجرد تفاهم عملي، ولم يكن مبدئياً بأي شكل من الأشكال تتحكم فيه توازنات القوى بين الفريقين الديني والعلماني واللاديني.

وقد ظل الوضع الراهن قائماً لمدة سنوات طويلة، ودخلت الأحزاب الدينة كل الائتلافات الوزارية التي حكمت إسرائيل، وقنعت بدور التابع الذي يقنع بقطعة من الكعكة. ولكن مع تزايد علمنة المجتمع الصهيوني وعلمنة يهود العالم وتصاعد الخطاب الدين وزيادة عدد الصهاينة من دعاة الديباجات الدينية وظهور مشكلة إجراءات التهود زادت حدة الاستقطاب في المجتمع الصهيوني بين الدينيين والعلمانيين. ومن الأمثلة على ذلك الموقف من طلبة المعاهد الدينية، فعند إعلان الدولة، وحين تم إعفاءهم من الخدمة العسكرية، كان عددهم لا يتجاوز 400، ولكن عام 1997 كان عددهم يزيد عن 29,000. وهذه الألوف لا تعمل، فهم طلبة وحسب، أي أن نسبة كبيرة من المستوطنين أصحاب الديباجات الدينية يعيشون على نفقة دافع الضرائب الإسرائيلي. ولذا أشار لهم أحد كبار العلمانيين في إسرائيل بأنهم "طفيليون"، وهي كلمة لها مدلول خاص في المعجم الإسرائيلي، إذ كان يستخدمها أعداء اليهود للإشارة لهم. وقد قال شيمون بيريز حين هزم في الانتخابات: "لقد هزم اليهود الإسرائيليين"، كما لو كان هناك فريقان متصارعان في إسرائيل: "يهود متدينون" ضد "إسرائيليين علمانيين"، والفريق الأخير ليس "يهودياً".

واحتكار المؤسسة الدينية لعمليات الزواج والدفن يثير حفيظة العلمانيين. فالمهاجرون اليهود السوفييت (وعدد كبير منهم "غير يهود" حسب التعريف الأرثوذكسي) لا يمكنهم أن يتزوجوا في إسرائيل أو يدفنوا حسب الشريعة اليهودية فيها. وقد أخرج جثمان أحدهم بعد خمسة أعوام من دفنه حين شكت المؤسسة الحاخامية في يهوديته.

كما أن أحد المستوطنين من أصل سوفيتي لقي حتفه بعد إحدى الهجمات الإستشهادية الفلسطينية ومع هذا لم يتم دفنه في مقبرة يهودية.

كل هذا أدى إلى أن حوالي نصف الإسرائيليين يرى أن الموقف المتأزم بين العلمانيين والمتدينين سيؤدى إلى نشوب حرب أهلية (وقد تكون هذه مبالغة ولكنها "مبالغة دالة"، إن صح التعبير)، وقد قال الحاخام حاييم ميلر إن الحل هو الفصل بين الفريقين منعاً للاشتباك بينهما.

ومما فاقم من حدة التناقض ظهور ما يسمى "الأصولية اليهودية". وتستخدم هذه العبارة في الخطاب السياسي العربي والغربي للإشارة إلى شكل من أشكال التطرف الدين عادة "الأرثوذكسي" (وتترجم كلمة "أصولي" أحياناً إلى كلمة "متزمت" أو "متشدد" أو "متطرف" مما يعني ترادف كل هذه المصطلحات مع لفظ "أرثوذكسي". وهذا خلل ناجم عن تطبيق مصطلح ديني، تم اقتراضه من نسق ديني ما ثم تطبيقه على نسق آخر).

ويرى مستخدمو هذا المصطلح أن هذه الأصولية تعود إلى الحاخام أبراهام كوك (الذي كان يشغل منصب الحاخام الإشكنازى في فلسطين) وأنها مستمرة حتى هذه الأيام (على يد ابنه الحاخام تسفي كوك وغيره)، بل إنها آخذة في التنامي. فقد بلغ عدد أعضاء الكنيست "الأصوليين" عام 1999، أي ممثلي الأحزاب الدينية (المفدال وديجيل هاتوراه وشاش) 23 عضواً (مقابل 16 عضواً في الكنيست السابق) من مجموع 120 عضواً. وتعد هذه أكبر نسبة في تاريخ إسرائيل السياسي.

وهذا التيار الديني أصبح بمقدوره التحكم في رئاسة الحكومة وإسقاط الحكومات. ولا يمكن تشكيل أية حكومة دون مشاركته (رغم أن أعضاء هذا التيار غير معنيين بالسياسة بالمعني الضيق للكلمة فهم يهتمون بميزانيتهم بالدرجة الأولي) وهم يستأثرون بوزارات المستقبل (التعليم ــ الإسكان ــ الأراضي ــ المهاجرون ــ الأديان) ويتحكمون في وزارة حيوية مثل وزارة التعليم، ويقال إنهم أصبح لهم نفوذ كبير داخل الجيش. فهناك حاخامية عسكرية تتولى مهمة التوجيه الفكري والديني داخل القوات المسلحة، وهي تباشر كل شئون الأحوال الشخصية المتعلقة بالعسكريين، وتشرف على المدارس العسكرية الدينية، وتخرج أجيالاً مسكونة بالكراهية المطلقة للعرب، كما تتولى الحاخامية إصدار الفتاوى التي تضفي القداسة على الممارسات والجرائم التي يرتكبها الجنود ضد العرب. وقد أوصل هذا التغلغل داخل الجيش عدداً غير قليل من الضباط الأرثوذكسي إلى مراتب علياً.

وفي استطلاع أجرته صحيفة يديعوت أحرونوت قال 47% من الإسرائيليين أنهم يتوقعون حدوث حرب أهلية بين المتدينين والعلمانيين اليهود (وقد تكون هذه مبالغة، ولكنها هي أيضاً "مبالغة دالة"). ودعاة الأصولية اليهودية يقفون الآن بمنتهى الحزم والشراسة ضد أي انسحاب من الضفة والجولان ويؤيدون طرد العرب، وهم مستعدون للذهاب في سبيل الدفاع عن موقفهم هذا إلى ابعد مدى. ولا تنس أنهم يعتبرون باروخ جولدشتاين منفذ مجزرة الحرم الإبراهيمي قديساً ومثلاً أعلى يجب الاحتذاء به.

والأطروحات الأساسية لهذه "الأصولية" ــ حسب تصور من يستخدمون هذا المصطلح ــ كما يلي:

1ــ إنشاء دولة إسرائيل هو تجسيد للحلم التوراتى اليهودي القديم، رغم أن الحركة الصهيونية نفسها، المؤسسة للكيان الصهيوني، لم تكن حركة دينية، وإنما كانت أيديولوجية سياسية علمانية، ورغم أن الآباء المؤسسين (الحرس القديم) مثل بن جوريون وإيجال آلون، كانوا ملحدين في حياتهم، علمانيين في طرق تفكيرهم. ويسمى كوك هذه الظاهرة (وعد ديني يتحقق على يد علمانيين) "الانشطارية". ولذا بينما يرفض الأصوليون هذا الطابع العلماني للدولة، فإنهم يقبلون بفكرة الدولة اليهودية نفسها (على عكس ناطورى كارتا التي ترفض فكرة الدولة من أساسها).

2ــ لا يمكن الثقة في الأغيار، بأي شكل، وأرض إسرائيل الكبرى هي أرض يهودية، ولابد للدولة اليهودية أن تعتمد على نفسها وحسب. (رغم كل المساعدات الخارجية التي تصب فيها). ولذا لا يفهم أعضاء هذا اليمين الديني الموازنات الدولية حق الفهم. وهم يتصورون أنه لا يمكن عقد سلام مع العرب، بل يجب طردهم أو تهجيرهم ولذا نجد أن الأغلبية الساحقة لهؤلاء المستوطنين من أصحاب الديباجات الدينية يقفون ضد أي تنازل عن "الأرض اليهودية".

وهذه المقولات ليست بالضرورة مقولات دينية ويمكن لأي حزب علماني أن يتبناها. وبالفعل نجد أن اليمين يضم في صفوفه متدينين قوميين وعلمانيين لا دينين. فهو يضم أحزاباً دينية مثل حزب المفدال وشاس وديجيل هاتواره، ولكنه يضم أيضاً أحزاب موليدت وإسرائيل بعالياه وتسوميت. وحزب إسرائيل بعالياه هو حزب الصهاينة المرتزقة، أي المهاجرين السوفييت الراغبين في تحسين مستواهم المعيشي، أما حزب تسوميت، فهو حزب صهيوني لا ديني. ولا يمكن الحديث عن نتنياهو أو عن جيله بأسره، باعتباره متديناً.

التكاثر المفرط للمصطلحات الصهيونية

من مظاهر الأزمة الصهيونية "التكاثر المفرط للمصطلحات الصهيونية" وهذا التكاثر المفرط هو سمة أساسية للفكر الصهيوني منذ ظهوره. فهناك "الصهيونية الدبلوماسية" و"الصهيونية السياسية" و"الصهيونية العامة" و"الصهيونية العمالية" و"الصهيونية الاشتراكية" و"الصهيونية الدينية" و"الصهيونية العلمانية" و"الصهيونية الثقافية" و"الصهيونية الروحية" و"الصهيونية التصحيحية" و"الصهيونية التوفيقية" و"الصهيونية الإقليمية" و"صهيونية بدون صهيون" و"صهيونية صهيون" و"الصهيونية المسيحية" و"صهيونية الأغيار" وغيرها من المصطلحات.

وقد استمرت الظاهرة بعد إنشاء الدولة وإن كان إسهال المصطلحات قد عبر عن نفسه من خلال أسماء الأحزاب التي تتغير بمعدل جنوني عند كل انتخابات وما بينها. وإذا كان التكاثر المفرط للمصطلحات سمة أساسية للخطاب الصهيوني قبل عام 1967فإن الأمور ازدادت سوءاً بسبب تصاعد الأزمة، فهناك الأزمة البنيوية للصهيونية وتوتر العلاقة بين المستوطن الصهيوني ويهود العالم. ولأن الأزمة لا حل لها والتوتر يتصاعد فإن الحلول المطروحة هي الأخرى تتزايد بشكل مفرط، ومن ثم تتكاثر المصطلحات وتتداخل فتضطرب.

وبعض التيارات الصهيونية الجديدة توصف بأنها "معتدلة" (صهيونية الخط الأخضرــ صهيونية الحد الأدنى ــ الصهيونية الديموجرافية)، ويوصف البعض الآخر بأنه "متطرف" (صهيونية الأراضي ــ صهيونية الحد الأقصى ــ الصهيونية المتوحشة). وحقيقة الأمر ــ كما أسلفناــ أنه لا يوجد فارق جوهري بينهما، فكلاهما يصدر عن الإجماع الصهيوني ولا يختلفان إلا فيما يتصل بطريقة التطبيق ونطاق التوسع.

ويظهر الخلط في المصطلح أيضاً في إدراك الحركة الصهيونية أن "الشعب اليهودي" يؤثر المنفي على "الوطن القومي" وأنه يحجم عن الهجرة إليه. ولكنها مع هذا ترفض الاعتراف بالأمر الواقع. ومما يزيد الأمور اختلاطاً أن هؤلاء الذين يرفضون الهجرة يسمون أنفسهم "صهاينة" لأسباب نفسية محضة لا علاقة لها بواقعهم أو سلوكهم. وقد طالب بن جوريون بعدم تسميتهم "صهاينة"، فالصهيونية ــ كما قال ــ هي الهجرة والاستيطان (ومن وجهة نظرنا، الاستيلاء على الأرض وطرد سكانها والقتال من

أجلها)، فطالب بتسميتهم "أصدقاء صهيون" وحسب. ولكن مثل هذه الراديكالية قد تفضح المشروع الصهيوني ومن هنا مصطلحات مثل "الصهيونية النقدية" و"الصهيونية التقنية" (وهي سليلة مصطلح بورخوف "صهيونية الصالونات"). وهي مصطلحات تشير إلى ظاهرة رفض أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الهجرة دون تسميتها بشكل صريح.

ونظراً لكل هذه التطورات أصبحت كلمة "صهيونية" (تسيونوت بالعبرية) تعني "كلام مدع أحمق" (الجيروساليم بوست 26 أبريل 1985) وتحمل أيضاً معني "التباهي بالوطنية بشكل علني مبالغ فيه"، وتدل على الاتصاف بالسذاجة الشديدة في حقل السياسة (الإيكونومست 21 يوليه 1984 وكتاب برنارد أفيشاى مأساة الصهيونية، ص26). ومن الواضح أن حقل الكلمة الدلالي أو منظورها يشير إلى مجموعتين من البشر: صهاينة الخارج، أي الصهاينة التوطينيون الذين يحضرون إلى فندق صهيون ويحبون أن يسمعوا الخطب التي لا علاقة لها بالواقع، ولذا فهي ساذجة، مليئة بالادعاءات الحمقاء والتباهي العلني بالوطنية. وتشير في الوقت نفسه إلى الصهاينة الاستيطانيين الذين يعرفون أن الخطب التي عليهم إلقاؤها إن هي إلا خطب جوفاء ومبالغات لفظية لا معني لها، ولكن عليهم إلقاؤها على أية حال حتى يجزل لهم الضيوف العطاء. والمقصود الآن بعبارة مثل "أعطه صهيونية" هو "فلتتفوه بكلام ضخم أجوف لا يحمل أي معني"، فهو صوت بلا معنى وجسد بلا روح ودال بدون مدلول.

وبطبيعة الحال يستطيع الكيان الصهيوني أن يتعايش مع كل هذه الأزمات، ولكن حينما يهب الفلسطينيون في انتفاضة رفض شاملة (كما حدث في انتفاضة 1987 وفي انتفاضة الأقصى والاستقلال) وحينما يقوم العرب بالهجوم على هذا الجيب الاستيطاني المغروس كالشوكة في حلقنا (كما حدث في جنوب لبنان)، فإن أزمة المجتمع الصهيوني تتبلور ويكتشف المستوطنون الصهاينة أن الادعاءات الصهيونية هي القومية اليهودية، أو عودة اليهود إلى أرض أجدادهم هي كلها أكاذيب فرضها الصهاينة فرضاً على الواقع من خلال عمليات متواصلة من الإرهاب والعنف ومن خلال الدعم الإمبريالي الغربي.

الفصل الثامن
انتصار الإنسان في جنوب لبنان

لا يتعامل الإنسان مع واقعة بشكل مادي مباشر، وإنما يتعامل معه من خلال مجموعة من الأفكار والرموز والأساطير. وقد أصبحت الصور المجازية والأساطير جزءاً أساسياً من الحروب الدائرة في العالم، خاصة في عصر الإعلام. إذ يبحث كل فريق مقاتل عن مجموعة من الشعارات والصور المجازية التي يبرر بها موقفه ويسبغ عليه قدراً من الشرعية. وحينما ظهر رجل أوربا النهم (أي الاستعمار الغربي) وتفتحت شهيته وقرر التهام العالم وجد أن عليه أن يستخدم مجموعة من الصور المجازية والأساطير فأطلق على الدولة العثمانية اصطلاح "رجل أوربا المريض" أي أنه حولها من خلال صورته المجازية إلى رجل مريض ميئوس من حالته سيتحول إلى جيفة ميتة بعد قليل، ولا غضاضة بطبيعة الحال في اقتسام الجيفة، بل إن هذا يعد خدمة للإنسانية المعذبة!

جغرافيا بلا تاريخ

وقد ورث الصهاينة هذا الإجراء الواعي أحياناً، وغير الواعي أحياناً أخرى، وصعدوا منه، خاصة وأن اليهود وإسرائيل وفلسطين وصهيون هي مفردات أساسية في الميراث الديني الغربي، ولذا نجد أن الصهاينة قد أحاطو فلسطين بدخان كثيف من الأساطير، صدقه بعضنا، فقد أشاروا إلى فلسطين باعتبارها "أرضا بلا شعب" (يمكن للصهاينة شراؤها وتفريغ سكانها منها) ولذا أشاروا إلى وطننا العربي باعتباره "الشرق الأوسط" ثم "المنطقة" وحسب، أي أنه تم إدراك كل شيء بحسبانه مكاناً لا زمان له، جغرافيا بلا تاريخ، شيء بلا ذاكرة، كل هذا جعل الشرق العربي منطقة يمكن للجيوش الصهيونية أن تصول وتجول فيها دفاعاً عن "أمنها" و"حقوقها" وأصبح العرب مفعولاً به لا فاعلاً، فالفاعل هو الصهاينة وجنودهم المقاتلون الشرسون، بل إن الجماعات اليهودية في العالم (التي يشار إليها باعتبار الشعب اليهودي) أصبحت جماعة من البشر يدور تاريخها حول المكان، فهو تعبير عن الرغبة في العودة إلى فلسطين "إرتس يسرائيل"، مكان توقف فيه التاريخ، ولذا فهو ينتظر عودتهم بفارغ الصبر.

وإنكار الزمان هي إحدى سمات العقل الصهيوني الذي يحول الزمان (حيث يتحرك الإنسان ويحقق الإنسان إنسانيته أو يجهضها وحيث يمارس حريته وإرادته) إلى مكان مصمت. والزمان بالنسبة للعربي هو الحيز الذي يمكنه أن ينهض فيه ويحرر أرضه ونفسه، ولذا فالعقل الصهيوني يمقت الزمان ويؤثر أن يتحرك في المكان. وقد ترجمت هذه الرؤية إلى عدة صور مجازية: فالدولة الصهيونية تارة "حائط في آسيا لحماية أوربا" و"حصنا منيعاً للحضارة الغربية في وجه الهمجية" (عب، الرجل الأبيض الصهيوني!)، وهي تارة أخرى "الحارس الغربي في المنطقة". وفي لحظات الصدق تستخدم صورة "كلب الحراسة: رأسه في واشنطن وذيله في القدس"، أي أنه كلب حراسة لا عقل له، أو أن عقله في واشنطن، فهي التي تفكر، وهي التي تمد الكلب بالحياة، أما ذيله التنفيذي فهو هنا في وسطنا في عالمنا العربي. وبالطبع هناك الصور المجازية الأكثر وضوحاً مثل "إسرائيل باعتبارها حاملة طائرات"، وقد صاحب هذا مجموعة من الصور المجازية الأخرى مثل جيش إسرائيل باعتباره الذراع الطويلة التي

تصل إلى أي مكان، والقوة الباطشة الأسطورية التي لا تقهر، والصهيوني باعتباره المقاتل الشرس الذي لا يهزم، والذي يدافع عن أرضه بشراسة، ويلاحظ أن كل الصور المجازية هنا تسقط الآخر العربي باعتباره وجوداً يتحدى الوجود الصهيوني وتسقط عنصر الزمان والتاريخ باعتبارهما المجال الذي يعبر فيه الآخر العربي عن نفسه.

في هذا الإطار تأسست نظرية الأمن الإسرائيلية المبنية على المكان والتي تنكر الزمان، وأصبحت المشكلة الأمنية بالنسبة للصهاينة مسألة حدود جغرافية أمنة وأراض يتم الإستيلاء عليها، وسكان يتم ضربهم بيد من حديد. وفي هذا الإطار تصور الصهاينة أنهم يمكنهم حل كل مشاكل المستوطن الصهيوني الأمنية، ومع نكسة عام 1967 تدعم هذا الاتجاه تماماً، فأعلن الصهاينة أنهم وصلوا للحدوم الآمنة، والحدود الدائمة، وأنهم سيمكثون هناك إلى أن يقوم العرب بالتسليم، كان خط بارليف هو بلورة لهذا الموقف وأيدهم العالم الغربي في موقفهم هذا، فقد أحسوا أن الزمن قد قتل، وأن التاريخ العربي والصراع العربي الإسرائيلي قد وصلا إلى نهايتهما!

ومن الأساطير الأساسية الأولي التي صدقها الإسرائيليون والتي ورثوها من ترسانة الأفكار الإمبريالية الغربية، هي الإيمان بأن القوة قادرة على تحقيق أي شيء، فالعالم، في نهاية الأمر، يشبه الغابة، وقد ترجم هذا نفسه إلى ما سماه موشيه ديان "خلق الحقائق"، أي أن تغتصب الأرض بالقوة وبمضي الوقت يصبح الاغتصاب حقيقة قائمة على الجميع الاعتراف بها والتعامل معها، هكذا فعلوا في فلسطين باسرها، وفي مناطق أخرى من العالم العربي.

والتوسعية الصهيونية هي إحدى تجليات مفهوم العالم كغاية هذا، والقوة كآلية وحيدة لحسم الصراع، ولذا مع وجود الآلة العسكرية الصهيونية لم لا يمتد الوطن "القومي" من النيل إلى الفرات؟ (كما صرح الحاخام فيشمان عضو الوكالة اليهودية في أربعينيات القرن الماضي)، وكما بين أورى أفنيرى أن ما يحرك الصهاينة ليس الدافع العقائدي وإنما موازين القوى وحسب، ولذا فالتوسع الصهيوني لم يتوقف ما دام هناك فراغ بسبب الغياب العربي، وقد تمدد الصهاينة وتوسعوا لميلأوا الفراغ في جنوب لبنان وليخلقوا حقائق صلبة جديدة فيه.

والرؤية المتمركزة حول المكان قد ترجمت نفسها إلى أسطورة ماسادا، و"ماسادا" كلمة آرامية تعني "القلعة"، وكانت توجد بها حامية رومانية هاجمها بعض المتمردين اليهود عام 66 ميلادية إبان التمرد اليهودي ضد الإمبراطورية الرومانية واستولوا عليها وذبحوا كل أعضائها. وقد أخمد الرومان التمرد وقاموا بحصار القلعة، وتقول الأسطورة: إنه بدلاً من الاستسلام والوقوع أسرى في أيدي الرومان آثر اليهود ممارسة انتحار جماعي. وقد ثبت كذب هذه قصة، ومع هذا تقوم أجهزة الإعلام الإسرائيلي بمحاصرة العقلية الإسرائيلية واليهودية بأسطورة ماسادا، ففي كل عام تقيم بعض أسلحة الجيش الإسرائيلي احتفالات تردد يمين الولاء على قمة القلعة ويقسمون في نهايته بأن ماسادا لن تسقط ثانية.

وقد أضفنا نحن من عندنا أسطورة يهودي البروتوكولات، وهو شيطان يوجد خارج الزمان، قادر على تحريك العالم بأسره، وزرع الفساد في ربوعه وإسقاط الحكومات وتوجيهها حسبما يريد، والسيطرة على الإعلام وحركة رؤوس الأموال، ونلاحظ أنه إذا كان اليهودي بهذه القوة فلا يوجد ما نفعله سوى الاستسلام، أو الفرار، لأن الحرب ضد مثل هذا الشيطان هو من قبيل الانتحار! فكل من البروتوكولات (المعادية لليهود) وماسادا (الصهيونية) يتفقان في عدم جدوى الجهاد وضرورة الاستسلام.

وحينما وصلت القوات الإسرائيلية إلى بيروت أرسلت رسالة واضحة عالية إلى كل الدول العربية: إنها على أتم استعداد أن تذهب إلى أقصى حد كي تحقق أهدافها الصهيونية بما في ذلك احتلال العواصم العربية، وإن الولايات المتحدة على أتم استعداد أن تؤازر إسرائيل في مطامعها وبطشها. وما بين المطامع الصهيونية والقوة العسكرية الإسرائيلية والمظلة الأمريكية واللوبي الصهيوني لا يملك بطبيعة الحال إلا التفاوض والاستسلام، أليس كذلك؟

بعث روح المقاومة

ولكن ما حدث في جنوب لبنان هزم كل هذه الأساطير وقضى عليها، والانتصار اللبناني على إسرائيل يوجب علينا أولاً وأخيراً أن ننظر بطريقة جديدة للصراع العربي الإسرائيلي إن كان فينا بقية من روح ووعي وضمير، لنؤكد للعدو أننا لسنا أمواتاً، وإنما يوجد جسد وروح وإرادة وعزيمة ورغبة في الاستشهاد في سبيل الله والوطن. وأن تاريخنا لم ينته، وأن الحياة تدب في أرواحنا، وأن روح المقاومة تسرى فينا، وأن إمكانية هزيمة الآلة العسكرية الاستخبارية الإسرائيلية (التي تساندها آلة الولايات المتحدة والغرب) إمكانية حقيقية.

ولنبدأ أولاً بوضع هذا النصر الأخير في إطاره الحقيقي، هو نصر باهر لاشك فيه، رفع رؤوسنا جميعاً، ولكنه ليس هو الوحيد، فهو ليس مجرد فلتة (كما يحلو لبعض الصهاينة أن يردوا حتى يطمئنوا أنفسهم، وكما يحلوا لبعض المهزومين من العرب أن يفعلوا حتى يحتفظوا بتوازنهم ويستمرا فيما هم فيه من غيبوبة واستسلام). إن انتصار المقاومة في لبنان هو جزء من نمط متكرر، فنحن في حربنا مع العدو ننتصر وننكسر، وننكسر وننتصر، ولكننا والحمد الله لا نستسلم، وما لاشك فيه أن هناك العديد من الانكسارات التي نعرفها جميعاً لكن هناك أيضاً انتصارات قبل وبعد 1948 يجب ألا ننساها. يجب أن نتذكر أن أطول حركة عصيان مدني في التاريخ وقعت في فلسطين في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي وغير ذلك من البطولات الفردية والجماعية. أما بعد 1948، فلم تهدأ المقاومة قط. ولكنها أخذت شكلاً أكثر تبلوراً في أعمال المقاومة ابتداءً من عام 1965 ثم معركة الكرامة فحرب الاستنزاف فانتصار عام 1973 فالانتفاضة المجيدة عام 1987 فانتفاضة الأقصى 2000.

إن تكرار النمط هو تأكيد لإمكانية الانتصار الأخيرة بإذنه الله، ويجب ألا ندع آلة الإعلام الصهيونية ترسخ في وجدانا غير ذلك، وانتصار حزب الله يؤكد هذا النمط ويبعث فكرة المقاومة مرة أخرى، فيرى الناس إمكانية الجهاد وإمكانية هزيمة الآلة العسكرية الاستخبارية الإسرائيلية التي تساندها الآلة الأمريكية والغربية بأسرها.

وفي محاولة لتبرير موقف الإسرائيليين تقول مجلة تايم "إن الإنسحاب وضع نهاية لاحتلال لا معني له استمر لمدة ثمانية عشر عاماً، وأودى بحياة مئات الجنود الإسرائيليين. فلقد استمرت إسرائيل في احتلال لبنان حتى تحارب حزب الله، وحزب الله حارب ضد إسرائيل لأنه بقى في لبنان". وهذه أكذوبة، فدخول إسرائيل للبنان لم يكن للحرب ضد حزب الله وإنما لتحقيق الأهداف الإستراتيجية الإسرائيلية الغربية، وهي تفتيت العالم العربي ابتداءً من لبنان، وحزب الله بدوره لا يحارب ضد إسرائي لأنها في جنوب لبنان وحسب، فالمسألة أعمق من ذلك بكثير.

فن تجفيف المستنقعات

وقد تأمل الإسرائيليون كثيراً في أسباب انتصار المقاومة اللبنانية، وكعادتهم فسروا المسألة بطريقة مكانية حتى لا يدركوا البعد التاريخي لهذا النصر، ولنترك باراك يتحدث، يقول هذا العنصري القديم، الذي تنكر في زي امرأة واغتال بعض القيادات الفلسطينية في لبنان وترأس فريق المستعرفيم (المستعربين) الذي كان يتنكر في زي عربي ويذهب إلى الأسواق الفلسطينية ويغتال بعض نشيطي الانتفاضة: "إن الحرب ضد الإرهاب مثل الحرب ضد البعوض، يمكن أن تطارد البعوضة تلو الأخرى، ولكنها حرب ليست مجدية من ناحية التكلفة"، ولنلاحظ أن الصورة المجازية هنا تحاول أن تحقق عدة أمور، التقليل من شأن المقاومة، وتحويلها إلى شيء لا قيمة له، بل ضارة، يجب التخلص منه وإبادته وإعطاء مبرر للصهاينة للانسحاب، فالمسألة بالنسبة له مسألة تكلفة لا أكثر ولا أقل.

ولكن الزمان يتسلل إلى خطابة، رغم أنفه، فحينما سأله مندوب مجلة تايم لم لَم تطالب بالانسحاب من لبنان حينما كنت رئيساً للأركان؟ اضطر باراك أن ينطق بالحقيقة، فالمسألة قد تكون مسألة تكلفة ولكنها مسألة تكلفة "متصاعدة"، تبين أن العرب يتعلمون ويستفيدون ويطورون أنفسهم، يقول باراك: إنه لم ينسحب حينما كان رئيساً للأركان لأن الأمر لم يكن ناضجاً "حينذاك"، وكل من "متصاعدة" و"حينذاك" تفتحان الباب على مصراعيه للزمان، إذ إن باراك يعترف أن حزب الله قد نضج بمرور الزمن، وكيف كان ذلك؟ "لقد قطع حزب الله مسافة طويلة منذ ذلك الوقت، مما اضطرنا لأن نزيد من استعدادنا وانتهي بنا الأمر بأن أصبح عندنا عربات مصفحة ضد متفجرات من عيار 50ك ج، وهذا وحش كاسر حينما بدأنا كنا ندافع عن سياراتنا ضد الألغام، واللغم عبارة عن 4,5 كجم من المتفجرات، فوضعوا لغمين، الواحد مع الآخر، مما اضطرنا إلى أن نجعل سياراتنا أكثر تحصينا، فاستخدموا أسلحة أكثر تطوراً من بينها صواريخ **TOW** وهي تصيب أهدافها بدقة، فتجد نفسك متورطاً في حرب متقدمة للغاية تتطلب الكثير من التكاليف. فبكل بساطة رغم أننا كانت يدنا هي اليد الطولي، إلا أن الموقف كان يتدهور بشكل حلزوني إلى أسفل ويؤدى إلى سحبنا بشكل أعمق وأعمق في الوحل"، رغم أن باراك لا يستطيع أن يتخلى عن عنصريته وخيلائه (فهو لو فعل لظهر عارياً أمام نفسه وأمام العالم: القائد المهزوم) ولذا نجده يطعم خطابه بعبارات مثل "اليد الطولي" و"الوحل" ولكن الرسالة التاريخية الزمنية قد وصلته، واعترف بها رغم كل محاولاته أن يخبئها ويتملص منها.

ذكر باراك أن حزب الله استخدم أساليب قتالية متطورة تكتيكات عديدة، ولكنه لم يذكر جوانب أخرى، تذكر الدارس بانتفاضة 1987، وأهمها أن المواجهة لم تتم بين الجيش الغازي ومجموعة صغيرة من المقاتلين تم تدريبهم بكفاءة، وإنما تمت بين الجيش الإسرائيلي الغازي والكتلة البشرية اللبنانية بأسرها ومن ضمنها النخبة المقاتلة، وأن هذا مكنها من تحقيق قدر عال من التماسك جعل من الاختراق مسألة مستحيلة وزاد من ثقة المقاومة بنفسها فاستطاعت هي من اختراق العدو واستخدام أحدث وسائل الدعاية والاستخبارات، وهذا ما حدث تماماً إبان الانتفاضة، وهذا ما حقق لها قدراً كبيراً من الاستمرار والنجاح، فأمام مثل هذا الحائط البشري التاريخي ماذا يمكن للعدو أن يفعل؟

لقد تحولت "الحدود الآمنة" و"الحزام الآمنى" إلى "مستنقع" و"كابوس" و"مأساة" (هذه كلها صور مجازية إسرائيلية). وحتى يسكت معارضيه استشهد باراك بمناحم بيجين الذي قال: "إن لبنان مأساة، لا يمكن تحملها"، ثم أضاف أن بيجين بعد اكتشافه هذا ضرب على نفسه العزلة إلى أن مات كمداً (حينما

ذكرت وقتها ذلك في إحدى مقالاتي تهكم أحد الواقعيين العرب على، وأخبرني أن الرجل مات حزناً على زوجته، وأتهمنى بمرض التفاؤل الثوري وعدم تقبل واقع الاحتلال.. السرطاني).

إن "المستنقع اللبناني" أصبح صورة مجازية أساسية في الوجدان الإسرائيلي (بعد أن كانوا في الماضي يتباهون بأنهم جاءوا إلى فلسطين فوجدوها مستنقعات وصحارى، فجففوا المستنقعات وزرعوا الصحارى)، ولكن باراك، مثل معظم الكذابين، يفقد أحياناً سيطرته على الصور المجازية التي يستخدمها كسحابة دخان لتغطية رؤيته الحقيقية فتفضحه بدلاً من أن تستره، فيقول: "إن منهجنا هو تجفيف المستنقع" [عن طريق الانسحاب]، ولكن إذا كان الانسحاب هو تجفيف المستنقع، فالماء الراكد إذن هو جيش الغزو الصهيوني، وجنوده هم البعوض، أليس كذلك؟ ثم ينطق باراك بالحق، "لم أر قوة عسكرية أصبحت أكثر قوة، أو أي أمة أكثر ثقة بنفسها، بأن حاربت ضد رجال العصابات المقاتلة في بلد آخر". ويقر باراك: "أن القيادة لابد أن تنظر للواقع بعيون مفتوحة، حتى لو كان هناك شيء من القسوة في ذلك" فيقرر الانسحاب. ولكن ما هي القسوة في أن ينسحب صاحب اليد الطولي الذي يطارد البعوض؟ القسوة تكمن في أن البعوض ليس بعوضاً، وإنما مقاومة حاولت ونجحت في تحرير الأراضي المحتلة، وأنها تمثل أنبل القيم الإنسانية، وأن صاحب اليد الطولي هو جيش مستعمر قطعت يده أو حرقت أصابعه، فولى الأدبار، وقد بدأ يدرك أنه جيش استعماري ظالم يمثل أخس ما في الإنسان.

إن إفرايم سنيه كان أكثر دقة وأمانة في وصفه للواقع الإسرائيلي حينما قال: "نحن نفضل كوليرا الانسحاب على سرطان وطاعون بقاء الاحتلال"، فصورة المرض المجازي تستخدم هنا لوصف كل من الاحتلال والانسحاب، فبقاء القوات الإسرائيلية مرض وانسحابها مرض، والاختيار هنا بين الأمرين أو المرضين، ولكن علينا نحن العرب أن نتذكر أن ما حول الاحتلال من نزهة خلوية إلى كوليرا هو مقاتلو حزب الله.

محاولة توظيف الانسحاب

ويفترض الإسرائيليون ــ كما أسلفنا ــ أن العرب مفعول به، يمكن تحريكهم كما يشاء المستعمر الصهيوني ويمكن القول بأن المشروع الصهيوني ككل يستند إلى هذا التصور، أليست نقطة الانطلاق هي الغياب العربي؟ فلو أن العرب موجودون بالفعل، فهل هناك مجال للوجود الصهيوني؟ أليست فلسطين أرضاً بلا شعب؟ و أليس وطننا العربي مجرد "منطقة"، مكان بلا زمان وجغرافيا بلا تاريخ، ومساحة يتحرك عليها بشر لا يمكن أن يحسب لهم حساب؟

ولذا تصور الإسرائيليون أنهم بانسحابهم سيحققون عدة أشياء من بينها أنهم سيعطون العالم صورة إيجابية عن أنفسهم، فهم يمتثلون لقرار هيئة الأمم 425 باعتبارهم جماعة متحضرة. ولكن من يمكن أن يصدق مثل هذه الأكذوبة/ النكتة، تنفيذ القرار بعد مرور 22عاماً، هكذا وبدون مقدمات؟ هل استيقظ الضمير الإسرائيلي فجأة، وبث الله النور في صدورهم؟

ولكن العالم كله يعرف أن هناك أجندة خفية، فالتصور الاسرائيلي لمنطقة هي أن تقسم الى دويلات اثنية وعرقية ودينية متنافرة متناحرة (دولة كردية ــ دولة شيعية ــ دولة سنية ــ دولة مارونية، وهكذا)، ومن ثم يمكن لاسرائيل أن تكون الدولة القائدة. وكان التصور الاسرائيلي أن لبنان هي أكثر دولة مرشحة للتقسيم وتجربة الحزام الأمني كانت في تصورهم هي البداية. ورغم فشلهم في ذلك

(فالمقاومة الاسلامية في لبنان كانت تضم مسلمين ومسيحيين، ايمانيين وعلمانيين، تماماً مثل جيش لحد العميل، فهو لم يكن جيشاً، مسيحياً، كما يحلو للبعض أن يروجوا، وانما كان لفيفا من نفاية المجتمع اللبناني ككل)، تقول رغم فشلهم الا أن الصهانية لا يتعلمون من التاريخ (وكيف يتعلمون منه وهم ينكرونه)، ولذا فهم لايزالون يتصورون أنهم بانسحابهم يمكنهم زرع الفرقة في لبنان وأن يجعلوه يسقط صريع الفتة الطائفية بين المسلمين والمسيحيين وبين الشيعة والسنة.. الخ، وأنهم يمكنهم أن يصعدوا الخلافات بين الجيش اللبناني والمقاومة بأن يصروا على ضرورة نزع سلاح المقاومة وأن يقوم الجيش اللبناني بحماية المنطقة الشمالية لاسرائيل! وهم أخيراً يتصورون أنهم بانسحابهم سيمكنهم تحقيق ما يريدونه من فصل للمسار السورى عن المسار اللبناني (تتخلص الاستراتيجية الاسرائيلية في التعامل مع كل دولة عربية على حدة، حتى يمكن التهامها كاللقمة السائغة).

وكل هذا بطبيعة الحال ممكن، ولكن قيادة حزب الله أظهرت وعياً بين العدو، ان كان في تعاملها مع سكان المناطق المحررة أو حتى مع العملاء الذين سلموا أنفسهم، فلم يتم اضطهادهم أو رجمهم كما فعل الفرنسيون مع المتعاونين مع النازيين.

كما أن لبنان (وسوريا) قد بينا للعدو أن انسحابه ليس هو نهاية المطاف، فهناك قضية مزارع شبعاً، وقضية تعويض لبنان عن الأضرار التي حاقت بها نتيجة الاحتلال. وهناك قضية المعتقلين اللبنانيين في السجون الاسرائيلية، وأخيرا هناك القضية التي لم يطرح الصهاينة أي حل لها منذ تأسيس المنظمة الصهيونية وهي قضية اللاجئين الفلسطينيين الذين يزيد عددهم حسب بعض الاحصاءات عن 350 ألف لاجيء.

تساقط الأساطير

وقد بدأت الأساطير الصهيونية تتآكل الواحدة تلو الأخرى، فبدلاً من التوسعية الصهيونية. ها نحن نرى الانكماشية الصهيونية، والانسحاب الذل وبدلاً من أمريكا الممسكة بلك أوراق اللعبة، قالت احدى الصحف الاسرائيلية (مستخدمة نفس الصورة المجازية) "لقد كسب حزب الله كل الأوراق".

ولنأخذ مثلاً آخر، أسطورة ماسادا التي يراد منا تصديقها. لم يقف التاريخ عام 1967 بل استمر فطور الانسان العربي نفسه وتحرك عام 1973 فتساقط خط بارليف، فهو لم يكن حائطاً منيعاً ضد التخلف الشرقي (كما ادعى هرتزل)، بل كان مليئاً بالثقوب مثل قطعة الجبن (كما قال ديان)، ومن المعروف أن القوات الاسرائيلية التي حوصرت في خط بارليف عام 1973، استسلمت بطريقة عملية رشيدة للغاية على مسمع ومرأى الصليب الأحمر الدولى والتليفزيون المصري، وفي أحد هذه المواقع سأل الجنود قادتهم بتهكم ان كان المطلوب هو القتال حتى الموت لاقامة ماسادا ثاني، فأتاهم الرد بالاستسلام على أن يبتسموا أمام عدسات التليفزيون المصري.

وأثناء انتفاضة 1987 لم يتحدث أحد عن ماسادا وانما تحدثوا عن الطائرة المروحية. وما هي حكاية الطائرة المروحية هذه؟ يقول شارون انه ان لم يصمد الاسرائيليون فستأتي الطائرات المروحية وسيستقلها الاسرائيليون من على سطح السفارة الأمريكية كما حدث في حرب فيتنام عند انسحاب القوات الأمريكية، وقد كتب أحد الشعراء الاسرائيليين (حاييم حيفر) آنذاك قصيدة بعنوان " سنرحل جميعاً الى أمريكا"، تبدأ القصيدة بالتصويت في الكنيست على الخروج الأخير، ولذا " فلنرحل الى أمريكا الآن / فلقد لملمنا حقائبنا وأمانينا" ويتدافع الجميع دون نظام (ولا تتزاحموا.. لكل مكانه / عفواً

لا تضغطوا هكذا). لقد حزمت الحكومة حقائب الرحيل الى امريكا. ويتصور رئيس الوزراء عملية الخروج السريع هذه وهو يجلس في مقعده في الطائرة، ويوق له المقام / يعلن أن لا مكان للباقين هنا"، فلسان حاله وحال وزرائه هو " نحن ومن بعدنا الطوفان" ان الصورة السائدة هنا عكس صورة البطل في ماسادا الذي يهلك مع رفاقه:

وبسرعة أخذت الطائرة..تطير

أما الدولة

فقد هجرت

وحيدة.. تركت.. اسرائيل.

تركت بقية الشعب رغم أننا جميعاً.. في الرحيل اليها.. راغبين بعيداً عن ماسادا المتهالكة، بعيداً عن صهيون التي اشتعلت فيها النيران، الى الولايات المتحدة الوطن القومي الآمن وربما الحقيقي.

وقد انتحر عدد من الجنود الاسرائيليين في جنوب لبنان ولم يكن انتحارهم تعبيراً عن الاصرار في الدفاع عن أماكنهم، وانما كان احتجاجاً على حرب لا معنى لها من جهة نظرهم. كما لوحظ تصاعد ظاهرة القرار من الخدمة العسكرية. ان أسطورة ماسادا، شأنها شأن الأساطير الأخرى، مثل المقاتل الصهيوني الشرس، واليهودي الشيطان الذي يسير العالم هي مجرد أكاذيب تهدف الى تنشيط لهمة واشاعة عقلية الهزيمة.

ويعبر نشيد الهاتيكفاه (الأمل) نشيد الحركة الصهيونية، والنشيد القومي الاسرائيلي، عن واحدة من أهم الأساطير الصهيونية، اسطورة الشعب الواحد الذي يتوق للعودة لوطن أجداده:

" ما دامت روح اليهودي

في أعماق القلب تتوق

ونحو الشرق

تتطلع العيون لصهيون،

أملنا لن يفقدا أبدا"

ماذا فعل الجنود الصهاينة بنشيدهم الصهيوني هاذ، بدلاً من التفاخر بالعلم الصهيوني القديم غنوا نشيدهم في جنح الظلام وبسرعة ثم فروا من المستنقع والمأساة والجحيم. ولعلهم في خروجهم اكتشفوا أن كلمات النشيد اكتسبت معاني ساخرة، فعيونهم تنطلق الى صهيون بالفعل، ولكن صهيون لا يتمتد من النيل الى الفرات، وانما انكمشت لتصبح يسرائيل داخل حدود 1948، بل بل ان شمال صهيوني المجاور لجنوب لبنان، اصبح يعيش في حالة رعب وانهيار اكثر من ذلك الانهيار الذي حدث لجيش لبنان الجنوبي: فقد ساد الفزع المستوطنين وغادرت أعداد كبيرة منهم الى وسط اسرائيل عند ذويهم، وعرض أعداد منهم منازلهم للبيع، أي أنهم خرجوا من شمال اسرائيل مثلما خرجت القوات الاسرائيلية من جنوب لبنان، والبقية تأتي باذن الله .

و"الخروج" في الوجدان اليهودي عادة مرتبط بالخروج **Exodus** من مصر أيام موسى التوراتي ، ثم أصبح يشير الى الهجرة الاستيطانية الى اسرائيل، ولكن المصطلح ارتبط مؤخراً في الوجدان الاسرائيلي الحديث بواقعهم المتردى. ولذا سميت هجرة الاسرائيليين الى الولايات المتحدة الخروج الثاني، أو الخروج من صهيون. فهل سيسمى الانسحاب من بيروت " الخروج الثالث"؟ وماذا عن الخروج الرابع والأخير باذن الله والذي أشار له الشاعر الاسرائيلي في قصيدته؟!

باب الجهاد والاجتهاد مفتوح

هذا ما أكده الجنرال الاسرائيلي شاؤول موفاز. فحينما أخبره أحد الصحفيين الأمريكيين أن الأمر قد انتهى بعد انسحاب القوات الاسرائيلية من جنوب لبنان، قال مستنكراً، عم تتحدث؟ انتهى؟ هذا وضع جدد ولنر ماذا سيحدث؟ ومن يجتهد ويجاهد هو الذي سيقرر طبيعة النهاية، أما الواقعية والاستكانة فنتائجها مضمونة تماماً.. الهزيمة النكراء!

الفصل التاسع
انتفاضة الأقصى
وجذور العنف الصهيوني

نشاهد يومياً في الفضائيات مدى عنف الاستجابة الإسرائيلية للانتفاضة الفلسطينية، وهو عنف لم نرى مثله من قبل في عمليات القمع الإسرائيلية. والحق يقال إنني توقعت هذه المواجهة العنيفة منذ أن بدأ ما يسمى بعملية السلام. وشعرت باقترابها حينما صرح أحد المفاوضين الفلسطينيين أنه لم يتم التوصل إلى سلام دائم وإنما إلى سلام دائم وإنما إلى مفاوضات سلام دائمة، وهو تعليق ساخر تشوبه المرارة يصف الطريق المسدود الذي دخلته عملية السلام، والذي جعل الفلسطينيين يدركون مدى عبثية عملية أوسلو بأسرها.

ومع هذا حين اندلعت انتفاضة الأقصى وحين قوبلت بكل هذا العنف الإسرائيلي، اعترتني الدهشة، وتساءلت كيف يمكن للإسرائيليين بعد هذا أن يستمروا في الزعم أنهم يريدون التعايش جنباً إلى جنب مع الفلسطينيين، خاصة بعد أن تم إسقاط أهم الثوابت الفلسطينية (عدم الاعتراف بإسرائيل ــ الميثاق الوطني الفلسطيني) وتم وضع علامة استفهام على بعضها (عودة اللاجئين)، وكل هذا من أجل سلام يتسم بالحد الأدنى من العدل.

الرؤية الصهيونية للواقع

لم يكن أمامي من سبيل لفهم كل هذا العنف إلا بالعودة للرؤية الصهيونية للواقع التي تحدد إدراك الإسرائيليين لأنفسهم ولمن حولهم. وإدراك المرء للواقع (وليس الواقع في حد ذاته) هو الذي يحدد سلوكه وكيفية استجابته لما يدور حوله. كان على العودة إلى المقولة البسيطة الساذجة التي تشكل اساساً للتصور الصهيوني للواقع وهي أن فلسطين "أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض" والنصف الثاني من المقولة، أن اليهود شعب جائل لا وطن له، ثبت كذبه، إذ إنه بعد قرن كامل من الاستيطان الصهيوني وبعض نصف قرن من إعلان الدولة، لاتزال الغالبية الساحقة ليهود العالم موجودة خارج الدولة الصهيونية، مما ينفي عن هذه الدولة صفة أنها وطن كل يهود العالم، وينفي عن اليهود صفة أنهم شعب يتطلع للعودة لوطنه، ومع هذا أمكن للدولة الصهيونية التعايش مع هذا الوضع وأن تستمر في طريقها، كأن شيئاً لم يحدث.

أما بالنسبة للنصف الأول من المقولة "أرض بلا شعب" فالمسألة أكثر عمقاً ولا تتحمل أي تهاون، إذ إن الإجماع الصهيوني (الذي يشكل الإطار الإدراكى والأيديولوجي لكل الصهاينة) يستند إليها، ففلسطين، من منظور صهيوني، هي إرتس يسرائيل، وطن اليهود القومي، ومن ثم فإن اليهود، كل اليهود، لهم حقوق مطلقة فيه، والحقوق المطلقة لا تقبل الآخر، مما يعني إنكار حقوق العرب في أسوأ تقدير أو تهميشها في أحسنه ومن هنا قانون العودة الصادر عام 1950، الذي وصفه بن جوريون ــ عن صدق ــ بأنه عمود الصهيونية الفقري، وهو قانون يمنح أي يهودي ترك "وطنه المزعوم" من عدة آلاف من السنين "الحق" في العودة ليصبح مواطناً فور "عودته" وتنكر، في الوقت ذاته، هذا الحق على ملايين الفلسطينيين القابعين في مخيمات اللاجئين.

هذا الإجماع هو ما يتفق عليه كل الصهاينة، متطرفهم ومعتدلهم، يمينهم ويساريهم، رأسماليهم واشتراكيهم، وهو شكل من أشكال العنف الفكري، فهو رؤية اختزالية للواقع المركب يستبعد من وجدان الصهاينة فلسطين وشعبها وتاريخها بل وجغرافيتها. والصهيونية في هذا لا تختلف عن التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية الأخرى، حين يتم نقل كتلة بشرية من أوربا ويتم توطينها في أرض جديدة، وعادة ما يشارك أعضاء هذه الكتلة في تبرير موقفهم باللجوء إلى ديباجات مختلفة ولكنها مع هذا لها سمات ثابتة:

1ــ فكل المستوطنين عادة ما يتجهون إلى إلغاء الزمان (التاريخ) أو تجميده والانفصال عن المكان. ونقطة البداية عند المستوطنين البيض لابد أن تغيب السكان الأصليين تماماً. ونقطة البداية عند المستوطنين البيض المهاجرين من العالم الغربي هي عادة رفض تاريخ بلادهم الأصلية، باعتباره تاريخ اضطهاد وكفر. ويحاول المهاجرون أن يضعوا حلاً نهائياً لمشاكلهم وأن يبدأوا من نقطة الصفر الفردوسية في الأرض الجديدة، ويتضح اليهود في المنفي (وضمن ذلك العالم الغربي) والصهيونية هي الحل النهائي الذي يطرحه الصهاينة والاستيطان في صهيون هو نقطة البداية والصفر.

2ــ ينكر المستوطنون البيض تاريخ السكان الأصليين في الأرض التي سيهاجرون إليها ويستوطنون فيها. فهي عادة أرض عذراء بلا تاريخ، غير مأهولة بالبشر (أرض بلا شعب)، على عكس الأرض التي يأتي منها المستوطنون، فهي مكتظة بالسكان.

ومرة أخرى نجد أن أسطورة الاستيطان الصهيونية تعبر عن هذا بشكل متبلور، إذ يزعم الصهاينة أن فلسطين هي إسرائيل أو صهيون، وأن تاريخها قد توقف تماماً برحيل اليهود عنها، بل إن تاريخ اليهود أنفسهم قد توقف هو الآخر برحيلهم عنها. ولن يستأنف هذا التاريخ إلا بعودتهم إليها، ولكنه تاريخ جديد خال من الاضطهاد والصراع، فهو أقرب إلى التاريخ المقدس.

3ــ لا تؤكد أسطورة الاستيطان الغربية نهاية التاريخ وحسب وإنما نهاية الجغرافيا كذلك، فالأرض التي يستوطن فيها الإنسان الأبيض هي أرض وحسب، ليس لها حدود واضحة ولذا فهي تتسع حسب قوة الإنسان الأبيض الذاتية، كلما زاد عدد المستوطنين وازدادوا قوة اتسعت الحدود. ومن هنا فكرة الرائد والجبهة المتسعة دائماً. والرائد هو الذي يرتاد أرضا جديدة دائماً، لا يعرف حدوداً ولا قيوداً ولا سدوداً. وارتباط نهاية التاريخ بنهاية الجغرافيا أمر متوقع، ففكرة الحدود فكرة إنسانية حضارية غير طبيعية، أما عالم الطبيعة والمادة فلا يعرف الإنسان، ومن ثم فهو لا يعرف الحدود.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية هي اسطورة التوسع بالدرجة الأولي، فإرتس يسرائيل ليس لها حدود واضحة. فالعهد القديم يحتوى أكثر من خريطة والمستوطنون الصهاينة أطلقوا على أنفسهم مصطلح "حالوتسيم" أي "رواد".

4ــ إذا حدث أن كانت الأرض التي يقال لها "عذراء" مأهولة بالسكان فإن أسطورة الاستيطان الغربية تحاول تهميشهم، فهم قليلو العدد متخلفون يفتقرون إلى الفنون والعلوم والمهارات المختلفة، يهملون الثروات الطبيعة الكامنة في الأرض. وهم عادة مجرد رحالة لا يستقرون في أرض ما، وهم شعب لا تاريخ له، فأعضاؤه جزء لايتجزأ من الطبيعة (كالثعالب والذئاب) ومن ثم لا حقوق لهم. لكل هذا فإن وجود مثل هؤلاء الناس هو وجود عرضي ومن الضروري وضع حل جذري ونهائي للمشكلة الديموجرافية، أي مشكلة وجود السكان الأصليين في الأرض العذراء وضرورة اجتثاث شأفتهم تماماً.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية تنظر للوجود الفلسطيني في فلسطين باعتباره أمراً عرضيا هامشـــيا، والاعتذاريات الصهيونية مليئة بالحديث عن فلسطين باعتبارها أرض مهجورة مهملـــة، وكثيـــراً مـــا يتحدث الصهاينة عن الفلسطينيين كما لو كانوا جزءاً من الطبيعة بلا تاريخ. وكل هذا ينتهي بطبيعـــة الحال بتأكيد حق اليهود المطلق في فلسطين. وتحاول الحركة الصهيونية وضع حل نهـــائي للمشـــكلة الديموجرافية فقامت أحياناً بالإبادة (دير ياسين ــ كفر قاسم) ولكن الطرد كان الشكل الأساسي، وبعـــد اتفاقيات أوسلو أخذ الحل النهائي شكل عزل السكان الأصليين داخل مجموعة مـــن القـــرى والمـــدن ومحاصرتهم بالقوات العسكرية الإسرائيلية والطرق الالتفافية.

5ــ تم تبرير الرؤى الاستيطانية الإحلالية عن طريق القصص الإنجيلية، وهنا يحدث تلاق كامل بين أسطورة الاستيطان الغربية العامة وأسطورة الاستيطان الصهيونية، فالمستوطنون البيض (وضـــمنهم الصهاينة) ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم من الأباء (البطارقة) الذين تركوا بلادهم ليستقروا في بـــلاد أكثر اتساعاً، أو في أرض عذراء لم يستوطن فيها أحد من قبل، وهم مثل العبرانيين يخرجون مصـــر (أو بابل) ارض المنفي البغيضة، وينسلخون من تاريخها ليعودوا إلى صهيون (الجديدة) بأن "يصعدوا" لها. فإن وجدوها مأهولة فأهلها إذن من الكنعانيين الذين لا حق لهم في الأرض ومصيرهم هو الحـــل النهائي: الطرد أو الإبادة.

وغني عن القول أننا حينما نتحدث عن "أسطورة" فنحن لانتحدث عن واقع تشكل ولا حتى عن برنامج عمل، وإنما عن قصة أو قصص يوجد فيها بشكل كامن نموذج معرفي، وهذه القصة مستبطنة تمامـــاً، تعبر عنها نفسها بشكل جزئى وتحقق بعض جوانبها في أماكن وأزمنة متفرقة، ولا تتحقق مجتمعة الا في لحظة نماذجية نادرة.

استناداً الى كل هذا التبريرات الاسطورية يدعى المستوطنون أن لهم حقاً في اغتصاب الأرض الجديدة من سكانها الأصليين ويحل لهم ابادتهم أو طردهم. والولايات المتحدة مثل واضح للاستعمار الاحلالي الذي يلجأ للابادة، والدولة الصهيونية هي مثل واضح على النوع الثاني المبنى على الطرد.

ومما عمق من العنف الادراكي لدى الصهانية، هو تفسيرهم للعقيدة اليهودية. فقد حولوا العهد القـــديم الى فلكلور الشعب اليهودي، وهو كتاب تفيض صفحاته بوصف حروب كثيرة خاضها العبرانيون ضد الكنعانيين وغيرهم من الشعوب التي أبادوا بعضها، وهو يفصل فصلاً حادا بـــين الشـــعب اليهـــودي المقدس والأغيار (أي غير اليهود)، بكل ما يتبع ذلك من ازدواجية في المعايير تجعل الآخـــر مباحـــا تماماً وتجعل استخدام العنف تجاهه أمراً مقبولاً. والصهاينة في هذا ــ بالمناسبة ــ لا يختلفون كثيـــراً عن المستعمرين البيض في أمريكا الشمالية وجنوب افريقيا وغيرها ن الجيوب الاستيطانية. فأعضـــاء الكتلة البشرة الوافدة دائماً يزعمون أنهم أكثر تفوقاً من السكان الأصليين (فهم شعب مختار أو جـــنس أبيض متفوق أو رسل حضارة) وبأسم هذا التفوق يقومون بابادة كل من يقابلهم من كنعانيين أو هنـــود حمر أو فلسطينيين.

كما أن الصهاينة (على عكس ما يتصور الكثيرون) يكرهون الشخصية اليهودية وينعتونهـــا بالســـلبية والهامشية والخنوع العجز، ولذا طالبوا بتحديث الشخصية اليهودية حتى يمكن أن تتخلص من خنوعها وتصبح شخصية قادرة على القتل، وكما قال بيجين: "أنا أحارب، اذن أنا موجود". ومن قبله أوصـــى أستاذه جابوتنسكي اليهود بأن يتعلموا الذبح من الأغيار "فالتوراة والسيف أنزلا علينا من السماء".

الرؤية الصهيونية للعرب

وقد طور الصهاينة صوراً ادراكية للعربي تنزع عنه انسانيته وتجرده تماماً حتى تغيبه. وتتسم هذه النظرية بتصاعد معدلات التجريد ال أن تصل الى النقطة التي يتحقق فيها النموذج الصهيوني الادراكي وهي التغييب الكامل للعرب:

1 ــ العربي كعضو في الشعوب الشرقية الملونة (تخفيض العربي):

وفي اطار هذا التصور، يقدم الصهاينة وصفا للشخصية العربية على انها شخصية متخلفة،ومثل هذا الوصف أمر شائع في الاعتذاريات العنصرية وفي أدبيات الاستعمار الأوروبي، فالوصف هنا ليس وصفا العربي بقدر ما هو وصف لأي آسيوي أو أفريقي (أو حتى أي أمريكي أسود)، والاستعمار الصهيوني، في أحد تصوراته لنفسه، كان يرى أنه جزء (تابع) لا يتجزأ من الحركة الامبريالية الغربية، ومن الهجمة العسكرية الحضارية على الشرق العربي لادخال الحضارة السكك الحديدية والبلاستيك والقنابل.

2 ــ العربي ممثلاً الأغيار في الأدبيات الصهيونية بأنهم: ذئاب، قتلة، متربصون باليهود، معادون أزليون لليهود، و"الأغيار" مقولة مجردة، بل انها أكثر تجريداً من مقولة "اليهودي" في الأدبيات النازية، أو مقولة "الزنجي" في الأدبيات العنصرية البيضاء، وهي أكثر تجريداً لأنها لا تضم أقلية واحدة، أو عدة أقليات، أو حتى عنصراً بشرياً بأكمله، وانما تضم كل الآخرين في كل زمان ومكانن وقد وضع الصهاينة الانسان العربي على وجه العموم، والفلسطيني على وجه الخصوص داخل مقولة "الأغيار" حتى يصبح بغير ملامح أو قسمات.

وتظهر مقولة "الأغيار" هذه في وعد بلفور (أهم الوثائق الصهيونية) حيث أشار الى العرب (الذين كانوا يشكلون أكثر من حوالي 93 % من مجموع السكان) على أنهم "الجماعات غير اليهودية"، دون تحديد هذه الجماعات أو ذكر اسمها، حتى تظل هذه الجماعات عند مستوى عال ن التجريد، ان هذه الجماعات غير اليهودية هي أية جماعة انسانية تشغل الأرض التي سيستوطن فيها الشعب اليهودي. وبينما كان هرتزل يتفاوض بشأت كريت موقعاً للاستيطان الصهيوني كتب عن الجماعات غير اليهودية التي تقطنها بطريقة تنم عن عدم الاكتراث والتجريد، فقد وصفهم بأنهم "عرب، يونانيون، هذا الحشد المختلط من الشرق".

3ــ تهميش العربي:

ان عملية التجريد السابقة تستهدف تهميش العربي حتى لا يشغل مركز الأحداث بالنسبة لفلسطين، والعربي الهامشي نمط أساسي في الادراك الصهيوني للعرب. ان الصهانية ينكرون وجود أية هوية سياسية للعرب عامة، وللفلسطينيين على وجه الخصوص أو أية مشاعر قومية من جانبهم، فالصهاينة في ادراكهم للثورات العربية عليهم ينكرون طبيعتها القومية والسياسية ويؤكدون لأنفسهم ولرفاقهم أن الدافع اليها ليس حب الأرض أو الوطن التمسك بالتراث، فالدافع اليها هو التعصب الديني، وقد كان الصهاينة يلومون المسيحيين العرب، أحياناً، باعتبارهم الأعداء الحقيقيين لمشروعهم الاستيطاني، ويصورون المسلمين في صورة الفريق الطيب الذي يمكن التفاهم معه، وكانوا أحياناً اخرى يفترضون العكس، فيؤكدون أن المسلمين هم العدو الحقيقي، وأن المسيحيين هم الفريق الذي يبدى استعداداً كبيراً للتعاون. وكانت الجماهير الفلسطينية بالنسبة اليهم مجرد غوغاء يتلاعب بها مثيرو الشغب من

الاقطاعيين والأفندية ولا تحركها الدوافع القومية.ويرى سمحاً فلا بان أن وايزمان كان يـؤمن ايمانـا راسخا بأن تمرد هذه الجماهير ليس تعبير صادقاً عن حركة قومية خلاقة وانما كانت تمليه الاعتبارات الاقطاعية القبلية الضيقة.

والى جانب هذا،كان الصهاينة يرون الفلسطيني أو العربي حيوانا أو مخلوقاً اقتصادياً محضا تحركـه الدوافع الاقتصادية المباشرة. واذا، فيمكن حل المشكلة العربية (حسب هذا التصور) في اطار اقتصادي لا يكون سياسياً بالضرورة، ولعل من الأمثلة الأولى على هذه الاستراتيجية الادراكية رشيد بلك، هـذا العربي الذي تم تخليقه حسب المواصفات الصهيونية في رواية هرتزل "الأرض الجديدة القديمة"، فهو يؤكد أن الوجود الصهيوني قد عاد على العرب بالنفع الكبير، لقد زادت صـادرات البرتقـال عشـر مرات، كما أن الهجرة اليهودية كانت خيراً وبركة، خصوصاً بالنسبة لملاك الأراضي لأنهـم بـاعوا أرضهم بارباح كبيرة، وظل لفيف من الصهاينة يؤمنون ايمانا راسخاً بامكان التغلب علـى معارضـة الفلسطينيين عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمة التي سيجلها الاستيطان الصـهيوني، وعـن طريق حثهم على لرحيل الى البلاد العربية بعد اعطائهم التعويض الاقتصادي المناسب عن وطـنهم. وكانت احدى القناعات الادراكية عند ايزمان أن تطور فلسطين سيؤدي الى أن يفقد العرب الاهتمـام بالمعارضة السياسية.

4- العربي الغائب:

ان ذكر العرب، ولو في مجال التشهير بهم، هو اعتراف ضمني بهم، ولكن الصهاينة يحاولون اخفـاء العرب بادخالهم في مفهوم مقولة "الأغيار" المجردة، هذا الاتجاه يصل الى قمته فيما يمكن أن نسـميه مقولة "العربي الغائب"، فبدلا من الاخفاء الجزئي خلف مقولة مجردة، تصل محاولة الأخفاء الى حـد الاغفال الكامل، فالصهاينة أحياناً لا يذكرون العربي بخير أو شر، ويلزمون الصمت حيال الضـحية، ويظهرون عدم الاكتراث الكامل بها (وهذه احدى سمات الخطاب الصهيوني).

وافراغ فلسطين من كل سكانها أو معظمهم (أي تغييبهم) هو أحد ثوابت الفكر الصهيوني، وهو عنصر متضمن بشكل صامت في الصيغة الصهيونية الأساسية. وهذا امر منطقي ومفهوم، اذ لو تم الاستيلاء على الأرض وبقى سكانها عليها لأصبح تأسيس الدولة الوظيفية مستحيلاً، ولتم تأسيس دولـة عاديـة تمثل مصالح سكانها بدرجات متفاوتة من العدل والظلم، فيهودية الدولة (مع افتراض تغييب السـكان الأصليين) هو ضمان وظيفيتها وعمالتها.

ومن هنا، كان اختفاء العرب حتميا، ومن هنا كانـت الصـفة الأساسـية للاسـتعمار والاسـتيطان الصهيونيين هي كونهما استعماراً استيطانياً احلالياً. فصهيونيته تكمن في احلاليته، كما أن احلاليته هي التعبير الحتمي عن صهيونيته (ويهوديته المزعومة).

ورغم أن رصد مقولة "العربي الغائب" وتوثيقها أمر بالغ الصعوبة لأن ما هو غائب لا يمكن رصـده وتوثيقه بالطريقة التقليدية التي تعتمد على الاقتباسات والنصوص وتحليلها، ومع هذان فان هناك عدداً كبيراً من التصريحات والمفاهيم الصهيونية لا يمكن فهمها الا في اطار مقولة " العربي الغائب" ويمكن أن يندرج تحت هذا كل ذاك الحديث المستفيض عن الأرض المقدسة وارتـس بسـرائيل وصـهيون وأرض الميعاد، فهو حديث يستند في نهاية الأمر الى افتراض غياب فلسطين العربية، والحديث عـن استيطان المهاجرين من روسيا القيصرية باعتبارها "عاليا" أي "صعود"، والحديث عـنهم باعتبـارهم "معبيليم"، أي يهود يدخلون فلسطين كما دخلها العبرانيون الدامى رغم كل الصعاب والعوائق،هو أيضاً

حديث يفترض غياب العرب وغياب تاريخهم. بل انه يمكن القول بأن المصطلح الصهيوني ككل (نفى، عودة ، تجميع المنفيين... الخ) يفترض مفهوم العربي الغائب، وقراءة أي نص صهيوني وفهم أي برنامج صهيوني أمر صعب جدا، ان لم يكن مستحيلاًّ من دون افتراض مقولة العربي الغائب كمثل أعلى ونقطة تحقق.

ولنحاول الآن أن ننظر من خلال عيون مستوطن صهيوني يرى العالم من خلال هذه العدسات الادراكية: "ان ظهر عربي على شاشة وعي، فانه يتحدى خريطتي الادراكية، فهو المفروض فيه أنه غير موجود، وان تجاسر وطالب بحقوقه ونادى بتطبيق قرارات هيئة الأمم على ارتس اسرائيل، أرض الميعاد اليهودية، فهذا دليل على جهله وتخلفه، ولا بد من تلقينه درساً، وان بدأ يتحرك نحوى ــ أنا اليهودي عضو الشعب المختار وصاحب الحقوق المطلقة ــ فهذا يعنى أنه انسان مجنون وخطر لابد من القضاء عليه، فالعرب لا يفهمون سوى لغة القوة (وهذا هو أحد بنود الاجماع الصهيوني).

هنا يتحول العنف الادراكي الى عنف فعلى مسلح، أي الى ارهاب، فتنطلق الصواريخ والمدافع والطائرات لتصبح فلسطين أرضاً بلا شعب، أو أرضاً يقطنها شعب لا سيادة له يعش داخل كانتونات تراقبه العيون الصهيونية المسلحة لتضبط حركته وتجعله يتحرك داخل حدود الادراك الصهيوني، وحينما يطالب الصهاينة الفلسطينيين بالجلوس معهم على مائدة المفاوضات فهم يطلبون منهم ذلك وهم قابعون داخل ادراكه الصهيوني، فيعرضون عليهم سلاماً صهيونياً حسب شروط صهيونية، يضمن استسلام الفلسطينيين، فان لم يقبل الفلسطينيون بالسلام / الاستسلام، فان جيش الدفاع الاسرائيلي سيتحرك ليدك المنازل ويسويها بالأرض ليضمن أن الواقع الفلسطيني يتفق مع الادراك الصهيوني له.

الهاجس الأمني وعقلية الحصار

ولكن لم يسمى جيش المستوطنين الصهاينة جيش الدفاع الاسرائيلي؟ يعود هذا بطبيعة الحال الى تصور الصهاينة أن أرض فلسطين هي أرضهم وأن الفلسطينيين خلاء، ومن ثم فالبطش بالفلسطينيين وذبحهم ومن قبيل الدفاع عن النفس ! ولكن ثمة بعدا آخر خفيا للادراك الصهيوني وهو ما نسميه الهاجس الأمني وعقلية الحصار. ويعود الهاجس الأمني الى أن المستوطنين الصهاينة أدركوا أن الأرض التي يسيرون عليها ويدعون ملكيتها منذ آلاف السنين هي في واقع الأمر ليست أرضهم، وليست أرضا بلا شعب كما كان الزعم، وأن أهلها لم يستسلموا كما كان متوقعا منهم، ولم تتم ابادتهم كما كان المفروض أن يحدث، بل انهم يقاومون وينتفضون ويتزايدون في العدد والكفاءات ولم يكفوا عن المطالبة بشكل صريح بالضفة والقطاع، وبشكل خفى بكل فلسطين وبحق العودة لها، وقرارات هيئة الأمم المتحدة الخاصة بحق العودة لا تزال سارية المفعول. ولم تقبل اسرائيل عضوا في المنظمة الدولية الا بعد تعهدها بتنفيذ هذه القرارات ويساندهم في هذا كله الشعب العربي، ومسألة العجز العسكري العربي والتفوق العسكري الاسرائيلي ليست مألة آزلية، وقد أثبتت حرب 1973 ثم المقاومة في لبنان، وبعدها الانتفاضة أن العرب قادرون على أن يعيدوا تنظيم أنفسهم ويهاجموا المستعمر ويلحقوا به خسائر فادحة.

ثمة احساس عميق لدى المستوطن الصهيوني بأن العربي الغائب لم يغب، وهو أحساس في جوهره صادق، فالكيان الصهيوني محاصر بالفعل ومهدد دائما، العرب في واقع الأمر لا يمكن "الثقة بهم"، لا، الجماهير العربية لن تقبل حالة الظلم باعتبارها حالة نهائية رغم توقيع معاهدات السلام الكثيرة! وأقصى ما يطمح اليه المستوطنون الصهاينة هدنة مؤقتة تنتهي عادة بمواجهات عسكرية، فالصراع

مع الكيان الصهيوني صراع شامل على الوجود، لأن وجود الشعب الفلسطيني لا يهدد حدود الدولة الصهيونية أو سيطرتها على أجزاء من الأرض الفلسطينية وحسب، وانما يهدد وجودها كله، كل هذا يعمق احساس المتوطنين الصهاينة بأن دولتهم كيان مشتول، فرض فرضا على المنطقة قوة السلام، وهم أول من يعرف أن ما أسس بالسيف يمكن أن يسقط به، والاسرائيليون دارسون نهمون لتجربة استيطانة سابقة تمت في نفس المكان وهي تجربة حروب الفرنجة (الحروب الصليبية في المصطلح الحديث). وممالك الفرنجة التي دامت حوالي قرنين من الزمان، رحل اصحابها، ولم يبق من آثارهم سوى بعض الأطلال ومما يعمق مخاوفهم احجام يهود العالم من عن الهجرة والتكلفة المتزايدة للتكنولوجيا العسكري، كل هذا يولد الهاجس الأمني المرضى وعقلية الحصار المرضية، وهي حالة لا علاج لها داخل الاطار الصهيوني ومهما قدم العرب من تنازلات يظل الهاجس الأمني قائماً، وكأنه لا علاقة له بالواقع، فهو حالة ادراكية مرضية لها جذور عميقة في الواقع.

وقد ولد هذا الهاجس الأمني احساساً عميقا باليأس لدى الاسرائيليين، والاحساس بأن حالة الحرب دائمة،ويظهر هذا الاستسلام الكامل في كلمات موشيه ديان في جنازة صديقه روى روتبرج الذي قتله الفدائيون الفلسطينيون، فقد قال وزير الدفاع الخارجية الاسرائيلي الأسبق :"اننا جيل من المستوطنين ولا نستطيع غرس شجرة أو بناء بيت، دون الخوذة الحديدية والمدفع، علينا ألا نغمض عيوننا عن الحقد المشتعل في أفئدة مئات الآلاف من العرب حولنا، علينا أن ندير رؤوسنا حتى لا ترتعش أيدينا، أنه قدر جيلنا، انه خيار جيلنا، أن نكون مستعدين ومسلحين، أن نكون أقوياء وقساة، حتى لايسقط السيف من قبضتنا وتنتهي الحياة.

ومنذ بضع سنوات لاحظ الشاعر الاسرائيلي حاييم جوري بمرارة ما سماه "مركب اسحاق" وهو أن الانسان الاسرائيلي يولد وفي داخله السكين الذي سيذبحه، كما بين جوري أن هذا التراب(أي اسرائيل) لا يرتوى، فهو يطالب دائما بالمزيد من المدافن وصناديق دفن الموتى، كما لو كانت أرض اسرائيل آلهة ثأر بذيئة، لا مجرد قطعة أرض أو اقليم، كما لاحظ الكاتب الاسرائيلي بن عيزر أن الاسرائيليين الشباب، الذين يخدمون في الجيش، يشرعون أن أهلهم بالاشتراك مع الدولة يضحون بهم دون تعويض أو عزاء من عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت، ولذا فهم يشعرون أن هذه الحروب هي تضحية علمانية باسحق"، أي أنها تضحية بشرية لا هدف لها ولا معنى، والمؤرخ الاسرائيلي يعقوب تالمون يتحدث عن "عقم الانتصار"، بعد أن رأى الجيش الصهيوني ينتصر في حرب تلو الأخرى ولا يحقق شيئاً لأن الشعب الفلسطيني يرفض الاختفاء ولأن الشعب العربي لا يتوقف عن تأييد الفلسطينيين وأن الشعوب الاسلامية لا تزال متمسكة بالقدس وبأرض فلسطين.

وتتناول قصة "في مواجهة الغابة" التي كتبها الروائى الاسرائيلي أبراهام يهوشوا، التي وصفت بأنها هدامة وانتحارية، بعض الأحداث في حياة طالب يكتب دراسة عن حروب الفرنجة، وقد عين بطل القصة الاسرائيلي حارسا لغابة غرسها الصندوق القومي اليهودي في موقع قرية عربية أزالها الصهاينة مع أزالوه من قرى ومدن، وكانت كل شجرة في الغابة تحمل أسم أحد المساهمين المتحمسين من الصهاينة التوطينيين من يهود الخارج، ورغم أن البطل ينشد الوحدة، الا أنه يقابل عربيا عجوزا أبكم من أهل القرية يقوم برعاية الغابة وتنشأ علاقة حب وكراهية بين العربي والاسرائيلي، فالاسرائيلي يخشى انتقام العربي، ومع ذلك فانه يجد نفسه منجذبا اليه بصورة غير عادية، بل يكشف الحارس المعين من قبل الصندوق القومي اليهودي أنه يحاول " بلا وعي" مساعدة العربي في اشعال

النار بالغابة، وفي النهاية، عندما ينجح العربي في أن يضرم النار في الغابة كلها، يتخلص البطل من كل مشاعره المكبوتة.

والاحساس باليأس قد يؤدي في النهاية الى الفرار والهزيمة، ولكنه في المراحل الأولى يؤدي الى مزيد من العنف الفكري الذي يؤدي بدوره الى مزيد من الارهاب الفعلى، وكلما زادت المقاومة الفلسطينية زاد البطش الى أن يصل المستوطن الصهيوني الى اللحظة التي يدرك فيها أن العنف لن يجدي فتيلاً أمام المقاومة وأن تحالف اسرائيل الاستراتيجية مع الولايات المتحدة والعالم الغربي (وهذه هي آخر بنود الاجماع الصهيوني) لن يفيدها كثيراً في محاولة قمع الفلسطينيين، عندئذ سيمارس هذا المستوطن تحولاً ادراكياً اذ انه لن يمكنه الاستمرار في الادعاءات أمام نفسه بأن فلسطين هي ارتس اسرائيل وأنها أرض بلا شعب تنتظر عودته منذ آلاف السنين، عندئذ ستسقط الأسطورة وتبدأ النهاية.

لا نهاية للتاريخ

في 21 من أكتوبر عام 1973 كتبت في جريدة الأهرام مقالاً بعنوان "لا نهاية للتاريخ" أشرت فيه الى أنه بغض النظر عن نتيجة الحرب فان نظرية الأمن الاسرائيلية المبنية على فكرة الحدود الجغرافية الآمنة والتي تسقط عنصر الزمان قد انتهت، لأن العرب أثبتوا مقدرتهم على تطوير أنفسهم بمرور الزمن وحينما حانت اللحظة المواتية، تحركوا وألحقوا الهزيمة بالعدو الذي أدرك بعدها أن الأمن لا يوجد في المكان فحسب وانما يوجد في الزمان أيضاً، وأنه ليس مسألة خاصة بالعلاقة بالجبال والحواجز المائية والترابية، وانما أمر يتعلق بالعلاقة مع البشر، وقد أنجزت انتفاضة 1987 شيئا من هذا القبيل، فمن خلال فعل المقاومة، اضطر الاسرئيليون الى الاعتراف بالوجود الفلسطيني، وجود هزيل، محاصر من كل مكان، وجود حقيقي، أي أن الخريطة الادراكية الصهيونية تم تعديلها بشكل جذري واختفت مقولة " العربي الغائب" ومع هذا استمرت المقولات الأخرى، وهذا ما تكفلت به انتفاضة الأقصى 2000 (التي يطلق عليها البعض اسم انتفاضة الاستقلال) فقد تركت جرحاً غائراً في الوجدان الصهيوني أكثر عمقاً وجذرية من أي جرح سابق، فلم يعد بوسع الصهيوني أن يزعم أن العربي شخص متخلف هامشي أو عدو أزلى لا عقلاني لليهود. فقد رأى بعينيه السكان الأصليين. الفلسطينيين، وقد هبوا هبة رجل واحد يدافعون حقوقهم المشروعة التي لا يمكن التنازل عنها، وأرسلو له حجرا يحمل رسالة لا يمكن أن تتهم بالتخلف أو الهامشية، رسالة تخبره أن وهم السلم المبنى على الظلم والبطش قد انتهى، وأنه لا سبيل أمامه الا السلام المبنى على العدل والذي لا ينطلق من الاجماع الصهيوني ونظريات الحقوق اليهودية المطلقة. كما رأى الشعب العربي والشعوب الاسلامية تتحرك بتلقائية غير عادية لمساندة الشعب الفلسطيني في كفاحه بشتى السبيل (ولا شك أن هذا أرسل رسالة واضحة جلية لصناع القرار في الغرب الذين كانوا قد شطبوا من حساباتهم ما سموه "الشارع العربي" و" الشارع الإسلامي"، أي الرأي العام الإسلامي، ومما لا شك فيه أنهم سيعيدون حساباتهم.

أن الحلم الصهيوني، بهذا المعنى، قد تم تقويضه والى الأبد وانتهى الوهم بأنه يمكن للمستوطنين الصهاينة التعايش مع العرب حسب شروطهم العنصرية. ومن الآن فصاعدا، مهما يحدث بعد انتفاضة الأقصى 2000، حينما سينظر الصهيوني الى العربي بعيونه المسلحة فانه سيرى مشروع انتفاضة، وسيرى يداً تمسك بحجر، وأن هذا العربي الذي يسير أمامه في سلام، والذي دخل معه في مفاوضات سلام ما يقرب من عقد من الزمان، هو في واقع الأمر عربي يلتقط أنفاسه ليعود ليقاوم وليرفع رايات

العدل والصدق في زمن يكثر فيه الكذابون والجبناء. وهذا هو الإنجاز الأعظم لانتفاضة الاســتقلال. والله أعلم.